مخطوط
مناقب مولانا الشيخ الحفنى

المسمى ب " منتهى العبارت فى بعض ما لشيخنا من المناقب والكرامات "
للشيخ : حسن بن على المشهور ب " شمة الفوى المكى الشافعى "٠

***

هذه مناقب سيد الواصلين، وعمدة السالكين سيدى محمد الحفناوى -رضى الله عنه-٠

يا أيها الحفنى إنى عاشق * لجمالكم فامنح بطيبة عطية
كم حارت الأفكار فى أمدادكم * حقًا دوامًا بكرة وعشية
أنت المُصرِّف فى الآمال مطلقًا * يا حبذا من نحوكم هدية
جئنا ضيوفًا بينكم وحماكم * لنعتلى بجنابكم سوية
ولو تقول الناس كل مديحها * ما تبلغ المعشار بالكلية

هذه مجموع بديع ، قد نفحت نفاسته من أنفاس صاحبه لما تضمنه من حليته ومناقبه، أبرزته بالإذن الإلهى بعد كونه، وجمعته من خزائن الإمداد ومكنونه، وطالما كنت قديمًا أقول :
قد كنت حين قدمت القاهرة، وحجج النصر للأعداء قاهرة، سنة أربع وستين ومائة وألف هلالية من هجرة خير البرية -صلى الله عليه وسلم-٠

وقد شاهدت أمور عجيبة، ووقائع غريبة من أستاذى وعياذى فى المهمات، وملازى القطب المجمع على تقدمه فى كل فريق، والمشهور له بالكمال، والتحقيق المطلق٠
سيدى الشيخ " محمد الحفنى " أمدنا الله بإمداداه، ومنحنا حسن حبه واعتقاده٠

ألح علىّ بعض الإخوان الأكابر، ومن على مثله تنعقد الخناصر، أن أجمع ذلك فى كتاب، ليفتح من الخير خير باب، ففهمت عبارته، وامتثلت إشارته٠
فوضعت كتاب الرحلة المسمى ب " النفحات الحقيقية فى الرحلة إلى الأقطار المصرية "٠

ثم سنح لى أن ألخص ذلك الكتاب، وأن أكشف عن مخدرات عرائس النقاب فى مجموع لطيف يتضمن بعض ما منح الله به أستاذى من الإفضال، وما خصه به من مناقب الكمال ليفرح به كل معتقد، ويحزن منه كل منتقد، فإذا وصلت إلى ساحل هذا البحر وجانبه، فاستخرج حليته بمرادك، ودع الأصداف لصاحبه فما وضعته إلا بمبلغ علمى، وجمود فهمى٠

وسميته " منتهى العبارات فى بعض ما لشيخى من المناقب والكرامات " ، ورتبته على ثلاثة أبواب٠

الباب الأول : فى إيراد مآثره منذ بداية مولده، وفيه فصول يأتى بيانها٠
الباب الثانى : فى سلوكه فى طريق الخلوتية، وتسليكه وبيان خلفائه، والآخذين عنه، وفيه فصول٠
الباب الثالث : فى بعض ما مدح به من كلام منثور ومنظوم، وفيه فصلان :
الأول : فيما مدحه به أشياخه، ومعاصريه، وتلامذته٠
الثانى : فيما تطفلت به عليهم فى مدحه خاصة٠
والله أسأل فى إتمام ما أردت على النحو المرضى، والإخلاص فيما عرضت فيه، إنه المؤمل فى القبول، وهو خير مسئول٠

الباب الأول : فى إيراد مآثره وأحواله منذ مولده، وفيه فصول٠

الفصل الأول : فى نسبه، وولادته، وذكر اسمه، وكنيته، ولقبه٠

ذكر لى من أثق به من السادة الأشراف : أن نسبه ينتهى إلى سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - من جهة أم أبيه٠
ثم طلبت النسبة حتى عثرت عليها فى سلسلة نسب الولى المسمى بالسيد برطع المدفون فى بركة الحاج إلى أن طرس النسبة اضمحل، فلم أعثر إلا على بعض أجداده كما ستعلمه٠

ثم رأيت فى نسبة شيخه مولانا السيد الصديقى الأتى ذكره، المنتهى نسبه إلى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - كما يأتى ذكر السيد ناصر الدين الحصرى، ورأيته أيضًا فى نسبة شيخنا، وعليه تكون له نسبة إلى الصديق - رضى الله عنه -، وتكون نسبة السيد ناصر الدين إلى الإمام الحسين من جهة الأم٠
وهذه سلسلة نسبه مع إسقاط وسائط كما علم مما مر ٠

فهو ابن : الإمام العمدة الصالح من سلسلة الأكابر، محيط دائرة المفاخر، ذى المواهب والمكارم، مولانا وسيدنا " السيد سالم "، ووفاته سنة ثلاث وأربعين٠
وكان بارًا رؤوفًا به، محبًا له مبجلًا معظمًا٠

سكن القاهرة، وكان مستوطنًا بها عند بعض الأمراء، إلا أنه كان على غاية من العفاف، والتقى، ومكارم الأخلاق، كما سمعته من ثقات بن السيدة السنية، والمأمونة الحسيبة ترك ابنة السيد سلام بن السيد محمد، وبن السيد على، بن السيد عبد الكريم، ابن الإمام الأكبر قطب دائرة المجد والأنوار، الولى الربانى والقطب الإنسانى صاحب الكرامات والأيادى والمكرمات، المجذوب المحبوب الأرفع السيد " برطع " المدفون فى بركة الحاج خارج القاهرة، ومقامه فيها مشهور، وفضله إلى الكون منشور، ابن السيد حسن، بن السيد زيد بن على، بن زيد العابدين، بن سبط الرسول وابن فاطمة البتول، الشهيد الإمام الحسين بن الإمام على ابن أبى طالب بن عبد المطلب جد النبى - صلى الله عليه وسلم -٠
رضى الله عنهم٠
هذه نسبتة الظاهرة عليها أنوار السؤدد٠

نسب كعقد من ليال نظمت * وله الثريا والعلا عنوان
حلى به جيد الكمال وأشرقت * أنواره وزهت به الأزمان
فكأنه بدر ولم يك أفلا * ك أو كوكب دارت به عقيان

وأما نسبتة الباطنة : التى هى أعلى من نسبته الظاهرة، لأن علاقتها الأرواح، وتلك الماء والطين٠
ويعجبنى قول بعض مشايخنا حين قال له شيخ الحرم المدنى أى : خادمه٠
لم لم تأت إلينا، وأنا خادم حجرة النبى -صلى الله عليه وسلم- ؟
قال : نحن أقرب فى الخدمة منك لأنك إنما تخدم الطين والتراب، ونحن خدام شريعته٠

وأما ولادته :
على رأس المائة بعد الألف أو عام واحد بعد المائة تقريبًا حسبما سمعته منه.
وفى عام ولادته التزم ببلده رجل يسمى أحمد فسموه باسمه تفاؤلًا.
فبلغ أباه مولانا السيد سالم وكان بمصر، وبعث إلى أهله أن سموه محمدًا، فعدلوا عن تسميتهم له إلى ما سماه به أبوه، وبه اشتهر.

ولا يخفى أن فيه رائحة تلميح إلى قضية :
فتسمية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - حيث سماه به جده عبد المطلب محمدًا، فقالوا : لم رغبت فيه عن أسماء قومك وأهل بيتك ؟ فقال : رجوت أن يحمده أهل السموات والأرض.

وأما كنيته :
فأخبرنى السيد السند القطب شمس الشموس الكنانية، وبحر العلوم اللدنية، المشهود له بالتقدم فى المعقول والمحسوس، مولانا العيدروس :
أن السيد الإمام الجامع، والشهاب المتلألأ اللامع سيدى عبد الخالق الوفائى شيخ السادة الوفائية بالقاهرة، كناه بأبى المكارم، أو قال : بأبى المحامد.
ووقع لى فى بعض مؤلفاتى تكنيته بأبى عبد الله بإلهام، ولم أطلع عليه.

وأما لقبه :
فقد اشتهر فى الخافقين، وتلقب فى العالمين ب " الحفناوى " نسبة إلى بلدة حفنا بالقصر، قرية من أعمال بلبيس، وبها ولد واشتهر نسبة إليها حفناوى، وحفنى ، وحفنوى.
وقد صار هذا اللقب علمًا عليه حتى صار لا يذكر إلا به.

وزرت يوم جمعة سيدى شاهين الخلوتى المدفون بسفح جبل المقطم، فرأيت مكتوبًا بحائط زاوتيه هذين البيتين :
إنى أقول لنفسى وهى ضيقة * وقد أناخ عليها الدهر بالتعب
صبرًا على شدة الأيام إن لها * وقتًا وما الصبر إلا عند ذى الحسب.

ثم رأيت تحتها أيضًا بيتين وهما :
إن رمت نورًا فردد دومًا بلا كسل * هذا الإمام ومن حاذاه واغتنم
واشكر إلهك إن لازمت حضرتهم * مداومًا إنها من أعظم النعم

ورأيت تحتهما كتب ذلك : ونظمه محمد الحفناوى نور الدين سنة ألف ومائة واثنين وعشرين.
وفى ذلك تلقيبه بنور الدين أيضًا، وهو جدير بهذه الألقاب الشريفة.
ولذا قيل :

وقل إن أبصرت عيناك ذا لقب * إلا ومعناه إن فكرت فى لقبه.

الفصل الثانى : فى انتسابه وطلبه للعلم، وأخذه رواية عن مشايخ يأتى ذكر بعضهم :

نشأ - رضى الله عنه - فى بلدة حفنا، وحفظ بها من القرآن إلى سورة الشعراء، وكان أبوه مستوفيًا بمصر كما مر، وكانت أخته متزوجة بها٠

فكان يأتى لزيارتهما أحيانًا، واستمر على ذلك، وهو ببلده إلى عام أربعة عشر، وهى مدة مقدار السنة، ثم حجزه أبوه عنده بالقاهرة لقراءة القرآن، وطلب العلم بالجامع الأزهر بإشارة عالم الأمة فى عصره الشيخ عبد الرؤوف البشبيشى٠

فاشتغل بحفظ القرآن حتى حفظه على النحو المرضى، ثم اشتغل بحفظ المتون، وطلب العلم، والحضور فى الفقد، وغيره من العلوم العقلية من ؛ نحو، ومنطق، وعروف، واستعارات، وأصول، وتوحيد، وحساب٠

وكان له لدى مشايخه حظوة تامة، وكانوا يرون تقديمه، ويحبونه حبًا شديدًا، ويمدحون معرفته، وجودة فهمه٠

وكان أولياء عصره يقبلون عليه، ويتأدبون فى حقه، فمنهم الولى القطب صاحب الوقت بالقاهرة إذ ذاك الشيخ محمد الزهار، وكان فى الملامية كثير المكوث مع كل من لقيه من الشبان، إلا هو فإنه كان يتأدب معه، ويقول : إن له شأنًا حسبما سمعت ذلك من غير واحد٠

ومنهم الإمام الكبير والقطب الشهير الذى كانت تطوف به الكعبة كل يوم سبع مرات، الشيخ على الشاذلى، ثم الديروطى صاحب الكرامات والأيادى والإمدادات، وكان يعظمه، ويبجله، ويدعو له، ويرى فضله ومزيته٠
وغيرهما ممن اشتهر بالولاية والصلاح٠

وأما أشياخه الذين أخذ عنهم العلم، واشتغل بالحضور عليهم :
فمنهم الشيخ العالم العلامة والقدوة الفهامة، حامل لواء الإفتاء والتدريس بالجامع الأزهر محمد الديرنى٠

ومنهم الشيخ الكبير والعلامة الشيخ عيد بن على النمرسى، المتوفى بالمدينة المنورة على ساكنها - الصلاة والسلام - وكان يثنى على فهمه ومعرفته كثيرًا ويجله٠

ومنهم الفقيه المدرس، والقدوة المؤتسى شيخ العلماء الأعلام ناصر بيضة الإسلام، محيى السنة، الشيخ أحمد الخليفى٠

ومنهم البحر الأعظم، والعلامة المطمطم شيخ القراء، والمحدثين من الفقهاء والمتكلمين، الشيخ محمد البديرى، ثم الدمياطى الشهير بابن الميت٠

ولقد بلغت المدة التى قرأ فيها خمس سنوات، ولكن ابن العناية ملحوظ، وما ذلك على الله بعزيز •
وحينما جلس للإفادة لازمه طلبة الجامع الفحول، ومن بهم يسمو المعقول والمنقول•
وكان إذ ذاك فى شدة من ضيق العيش والنفقة، فإنه لم يجبل إلا على الكرم ومكارم الأخلاق كما ستعلمه•
وكان يتردد إلى زاوية سيدى شاهين الخلوتى بسفح الجبل، ويمكث فيها الليالى ذوات العدد، متحنثًا•

سمعت منه - رضى الله عنه - : أنه حصل له ضيق فاشترى دواة وأقلامًا وورقًا، واشتغل بكتابة كتب العلم والنسخ، فشق عليه خوف انقطاعه عن العلم بسببه، فبينما هو فى بعض الدروس التى لا مخبأ فيها للقطب العيدروس، إذ جاءه رجل حضر مجلسه، أو هو ممن يحضره كل يوم، ثم بعد فراغه قال له :
يا سيدى أريد أكلمك كلمتين ههنا، وأشار إلى مكان قريب•
فسار معه حتى إنتهيا إلى المدرسة العينية، فدخلها ودخل معه الرجل، ثم جلسا فأخرج الرجل محرمة ملآنة دراهم، وقال له : يا سيدى فلان يسلم عليك، وقد بعت لك بهذه الدراهم، ويريد أن يحظى بقبولها•
ثم فتحها وملأ كفه من الدارهم، وأراد أعطائها لحاملها فامتنع، وحلف لا يأخذ منها شيئًا، ثم فارقه ذلك الرجل، فتوجه - رضى الله عنه - إلى البيت، وكسر الأقلام، والدواة، فأقبلت عليه الدنيا من حينها•

وقد صار أن ذاع صيته، وأقبل عليه طلبة العلم، وصار يعقد الدروس، وما من كتاب من الكتب المشهورة بالقراءة فى الأزهر فى أى علم إلا قرأه، وكتب عليه•
فمنها : المنهاج فى الفقه على مذهب إمامنا الشافعى - رضى الله عنه - ، قرأه غير مرة، وكتب عليه الألفية، والمختصر للسعدى، وحاشية حفيده عليه، وكتب عليها، وقرأها غير مرة أيضًا•

ومنها : شرح ابن عبد الحق السنباطى على " البسملة "، وكان وهو يقرؤه من القرب جماعة من الأفاضل، فدخلوا الجامع الأزهر، وحضروا جمع علمائه، ثم قالوا :
يا سبحان الله كنا نسمع أنه لا يوجد مثل علم الجامع الأزهر، وها نحن لم نجد فيه أحدً يعرف قراءة العلم•
ثم عزموا على العود إلى بلادهم، فلقيهم بعض الناس فذكروا لهم الأمر وقالوا :
هل يوجد فى الجامع غير هؤلاء العلماء ؟
فقيل لهم : نعم هنا عالم يقال له الشيخ محمد الحفناوى يقرأ فى الطيربسية بعد المغرب " شرح ابن عبد الحق على البسملة "•

فعمدوا إلى درسه، وحضروه، وتكلموا معه، وسألوه، فبهر عقولهم بحثًا، وتقريرًا، وتحريرًا، حتى قالوا : هذا الحق الذى لا محيد عنه، ويوجد اليوم مثل هذا ! ثم لازموه مدة من السنين•

وكان العلامة الولى الفقيه الفهامة الشيخ مصطفى العزيزى إذا رُفع إليه سؤال يدفعه إليه، وكان إذا سئل عن معنى حديث أو غيره، أو تأليف رسالة، أو غيرها يرسل إليه فيفتى، ويؤلف على وفق مراد السائل•

وكان وهو يقرأ فى " شرح الياسمينية " والمقابلة، قد رأى فى أثناء الشرح ما معناه :
وأن هذه المسألة ونحوها يتوقف معرفتها على معرفة جالينوس ونحوه من كتاب الهندسة.

فقال - رضى الله عنه - : فحصلت أشكال التأسيس من كتب ذلك الفذ ثم طلبت من يعرفه لأقرأه عليه، فلم أجد إلا رجلًا عالمًا كان برواق الأكراد، فقصدته ثم حضرت عليه فيه بعض الدروس، فلم أجد فيه فائدة ولا ثمرة.
فقلت للشيخ : هل ثم ثمرة غير هذا ؟ فقال : لا، فقلت إذا اعفنى من قراءته فإنه قليل الجدوى.

ثم تركه واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه، كذلك اشتغل بالنظم والنثر حتى فاق على البلغاء نثره ونظمه، وما حضره أحد إلا انتفع به غاية الانتفاع، وفاضت كثرة علومه.

فمن من لازمه وأخذ عنه العلامة المحقق السيد الأفخر، أخوه وابنه وشقيقه النبيل شيخنا وملازنا وأستاذنا " الشيخ يوسف الحفناوى " الذى دق عن السحر الحلال فهمه، كيف لا وقد أذعن لفضله كل عريف عريق، وشهد بتقدمه فى حلبة العلم كل فريق.
ثم العدوى صاحب التأليفات الكثيرة، والتدقيقات الشهيرة، ، وغيرهم من الأئمة الأعيان الذين لا يجود بمثلهم الزمان.

وكان يشاهد فى دروسه النبى - صلى الله عليه وسلم - مرارًا ، وكسا الله مجالسه هيبة ووقارًا، لا ترفع فيها الأصوات، يلقى المسائل مفصلة بلا تكلف خالية عن الحشو والفضول، ولا يستطيع أحد أن يسأله لما عليه من المهابة، ولتحقق خطأ كل سائل إذا أجابه، وضبط من يحضره من العلماء والفحول فجاوزوا الثلاثمائة، ولم يشتغل بالتأليف كثيرًا لانشغاله بالإقراء.

ومن تآليفه المشهورة : حاشية على رسالة العضد للسعد، وعلى شرح الرجبية فى الفرائض للشنشورى، وعلى شرح الهمزية لابن حجر، وعلى مختصر السعد، وعلى شرح السمرقندى للرسالة الياسمينية فى الجبر والمقابلة، وله تصانيف أخرى مشتهرة منظومة فى سلك الظهور، ومنثورة.

وهو حقيق بقول القائل :
إذا ذكرت بحور العلوم يومًا * فهذا بحره لا غيره يجرى
هو البحر المحيط وما عداه * فأنهار صغائر منه تجرى.

الفصل الثالث : فى حليته وسجاياه وشمائله :

أما ذاته الشريفة، وحليته البديعة اللطيفة :
فهو من أحسن الناس وجهًا كالبدر تارة إن بدا بجمال ، وكالشمس أخى إن بدا بجلال٠
رأيته مرة وعليه حلة خضراء فكنت أنظر إليه وبيض محياه يتخلل تلك الحلة حتى لا يستطيع أحد أن ينظر إليها، وربما أضاء البيت من نور وجهه فى الديجور٠
ودخل عليه مرة بعض الأتباع فحلف لى أنه رأى وجهه كأنه قنديل من بلور يتلألأ نورًا٠

معتدل القامة ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، عظيم الهامة، أبلج الخدين، مقوس الحاجبين، ضليع الفم، رحب الراحة والصدر، سواء البطن والظهر، كث اللحية، كأن عنقه جيد دمية، أبيض مشرب بحمرة، زاهى الطلعة والغرة، ليلى الذوائب والطرة، كفه ألين من الحرير، تالله ما رأيت له فى عصره من نظير٠

وأما سجاياه وشمائله :
فقد طهره الله تعالى، وصانه عما لا يليق به٠
أخبرنى الإمام الهمام شيخ المسلمين والإسلام الشيخ حسن الشيشينى :
أن الشيخ الصوفى الولى العارف بالله الشيخ محمد البلاكوسى قال له مرة :
يا شيخ حسن إن شيخك الحفناوى لم يضبطوا عليه مكروهًا من عهد بلوغه إلى وقتنا٠

وسمعت منه - رضى الله عنه - أنه قال لجان قد اشتهر بالولاية، والصلاح، والكشف :
فى القاهرة رجل يقال له الشيخ أحمد الوراق، وكان مقيمًا أمام الطحاوى خارجها٠
قال : وكنت كثير الخوف، فحاك فى صدرى أن أتوجه إليه، وأسأله هل أنا من السعداء أم لا؟٠
فحين وصلت إليه وجلست عنده، وكان لا يصرح بالمراد، وإنما يشير إليه٠
فرفع صوته وقال : والله إنك مسعد، وكررها ثلاثًا٠
وسيأتى نحو هذا للشيخ العزيزى فى الباب الثانى٠

وقد ألف النسك، والعبادة، والخلوة، وهكذا النجباء، حلاه الله بأحسن الأخلاق، ما جهل عليه أحد إلا أتبع السيئة الحسنة، يخاطب كل إنسان على قدر حاله من ؛ كبير، وصغير وغنى، وفقير، وخليل، وحقير، وعبد، وحر، حتى يظن كل أحد أنه أعز الناس عليه٠

لا يمله جليسه، يعظم كل أحد، ويتمثل قائمًا لكل قادم، لا يتخلف عن إجابة كل من دعاه إلى منزله أو غيره٠
ومما حدثت به من حسن خلقه : أن بعض علماء عصره ذكره بسوء فى مجلسه، فنقل إليه بعض من كان حاضرًا ما ذكره به الشيخ٠
فقال للناقل :
كذبت فيما نقلت، وسماحة من نقلت عنه مبرأة من ذلك ، وعلى فرض أنه تكلم فهو لى بمنزلة الشيخ، وأنا بمنزلة التلميذ، وللشيخ أن يربى تلميذه بما يراه، يا قبيح مثلك من يعرف مقام الشيخ حتى تنقل على لسانه، وأخذ يوبخه بنحو هذا٠
فرجع الرجل وتاب وخشع وأناب، فبلغ كلامه ذلك العالم فأذعن لفضله وأدبه٠

ووقع أيضًا : أن بعض معاصريه عمل عرسًا، وانتظر قدومه إليه فيه، فلم يحضره لأن من عادته أن لا يحضر مجالس الأعراس، ونحوه من المجالس الغير مضبوطة بالأمور الشرعية حفظًا للمروءة، فإنى سمعته يقول :
” نحن نخاف على مروءتنا كما نخاف على ديننا ”٠
فتغير عليه ذلك المعاصر، ثم لقيه فى طريق فأخذ يوبخه توبيخًا شنيعًا، وهو صامت يعتذر إليه بألطف عبارة، وهو لا يقبل، ثم تركه ومضى٠

فاتفق أنه وقع لذلك الرجل حادثة، وكان حلها على يد أستاذى٠
فظن ذلك الرجل أنه إن قصده ربما يكتم الشهادة ولا ينفذ غرضه، وتوقف الأمر عليه٠
فأرسل من كانت على يده الدعوى يسأله عن مضمونها، وقال :
جميع ما يقوله الشيخ هو الحق، ولا يكون خلافه، وبقى ذلك الرجل باهتًا خوفًا منه لما قابله به من الإساءة٠

فلما جاء إليه السائل، قال له : الحق مع فلان، وأراد ذلك الرجل، وأن خصمه على الباطل، وجميع ما يقوله من غير بينة حق٠
فرجع الرسول إلى المرسل والرجل عنده فأخبره بما أجابه الشيخ، ففرح أتم فرح، وعجب غاية العجب حتى بكى٠

ورأيت منه غير مرة إذ لقى بعض معاصريه من الأشياخ فى المجالس الحافلة، يقبل يده ويكاد يخر لرجله يقبلها أدبًا منه، ويتأخر عنه مشيًا وجلوسًا٠

وقال مرة لبعض معاصريه : وكان قد أفتى بفُتيا، وخاف أن يكون على غير الصواب، ووقع فيها كلام، ووصلت إلى حضرة أستاذى٠
فكتب عليها كما كتب عليها ذلك المعاصر، فسأله عنها، فقال شيخنا :
أنا لا أكتب إلا تابعًا لك، ولو كان الرملى، والروضة، والمنهج ، ونحوها من كتب الفقه فى يدى، وسئلت ما أقول إلا الحق، فبكى ذلك الرجل ودعى له٠

ومن مكارم أخلاقه : إصغائه لكلام كل متكلم ولو أنه من الخزعبلات، مع انبساطه إلى المتكلم، وإظهار أنه يحب إطالة ذلك منه، حتى أن المتكلم يغتر، فيجعل ذلك من قبيل إطالة الكلام حيث الإصغاء مطلوب٠

ورأنت رجلًا ممن اشتهر بالثقل فى أقواله، وأفعاله يتردد عليه كل يوم، ويطيل باللفظ فى الحديث عنده، ثم إنى سمعته يومًا يقول له :
يا سيدى الشيخ ترد علينا كل يوم، ولا تقطعنا فأننا ننسر بحديثك لما فيه من كثرة الفوائد، مع أن ذلك الرجل لو حدث معاوية لضج منه٠

ومن مكارم أخلاقه : أن كل من جاءه مدعيًا شيئًا سلم له دعواه، وأظهر اعتقاده، وذلك نحو المجاذيب والفقراء اللابسين لخرقة الصوفية فإنه يجلهم، ويبجلهم، ويعتقدهم٠
فمن ذلك :
أن مجذوبًا كان يتردد عليه، ويظهر أنه ولى، ثم يسأله شيئًا من الدنيا، فكان يعطيه كلما سأل، ويقول : هذا من الأولياء نفعنا الله به، ونحو ذلك٠

ثم سمعته يقول : نحن نكرم هؤلاء لتشبههم بأهل حضرة الله، وإن لم يكونوا منهم٠

وكان يتردد عليه مجذوب آخر، فوقع لى معه نكتة :
وذلك إنى تركت الدابة التى أركبها فى بيت حضرة أستاذى، فجاء ذلك المجذوب وأخذها، وتوجه بها من غير استئذان، فلما حضرت فلم أجدها فأُخبرت بالقصة، فحصل لى غم كبير، وظننت أنها قد ذهبت٠

وكان أستاذى آنذاك متوعكًا فى أعلى داره، فقلت فى نفسى : الآن الشيخ فى حال وفى شغل بما هو فيه، فلا يليق تكديره لا غيبة ولا شهودًا٠
فقصدت فى هذه القضية أبا العينين السيد الدسوقى - رضى الله عنه -فمدحته ببيتين نظمًا، وهما :

يا أيها البدر الذى إذا شامه * دون السها بدر السمالة سجد
أدرك بجاهك تابعًا لك يا أبا * العينين من أحما الحمى حلسا يرد
ثم أخذت عدد حروفها بالجمل، وقعدت أستعملها وردًا، فإذا الخادم قد جاء بالدابة حيث وجدها فى الغورية فحمدت الله٠

ثم إنى اجتمعت بأستاذى، وأخبرته بالقصة، وقلت له :
يا سيدى هؤلاء المجاذيب ما الحكم فيهم ؟ فإنى غالبًا لا أذوق منهم رائحة ولاية، وذكرت له طائفة٠
فقال لى : وأنا كذلك، وإنما إكرامى لهم، وإظهار اعتقادهم خوف قطع رجائهم، وحرمانهم من الإحسان إليهم، فإنى إن فعلت خلاف ذلك لم يعتقد فيهم أحد، ومُنعوا إحسان الناس إليهم، وإلا فإذا تحققت وجدتهم غالبًا أنهم ليسوا على شىء٠
وطالما رأيت أمثال هؤلاء يدخلون عليه، ويسيئون الأدب فى حضرته بما لا يحتاج إلى ذكر، فرأيته يسعهم ويتأدب معهم على عادته، وذلك مما أتاه الله من مكارم الأخلاق٠

وجهل عليه مرة بعض أتباعه فأغضى عنه وحلم عليه، ثم زاد فى بغضه واجتنابه، فكان الشيخ كلما اجتمع به أحد من أصحاب ذلك التابع، يقول له : بلغ فلانًا عنا السلام، ونحن داعون له، وراضون عنه٠
قلت : وهذه عادته مع كل من نأى عنه، ولم ينأى عنه أحد، إلا لمجرد حظ نفس كما تحققت ذلك من مكارم أخلاقه٠

فإن منها : أنه كان لا يقابل أحدًا بما يكره قط، ولا يعامله به، ولو كان عدوه، بل يهش لكل إنسان، ويبش مع اللطف ولين العريكة وحسن العشرة، وما علمنا أحد نأى عنه أو تغير ثم عاد إلا قبله، ومع ذلك لم نر من تغير عنه إلا وقد تغير حاله، حتى لو تاب بعد ذلك لم يرجع إلى درجته التى كان فيها، وكأن هذه غيرة من الله تعالى عليه٠
فليفهم العاقل وليحذر من غفلته عنه، وقد نصحتك والله يعلم ذلك٠
وفى الحديث : « من استخف بأستاذه ابتلاه الله بثلاثة ؛ كل لسانه عند موته، وافتقر آخر عمره، ونسى ما حفظه »٠ والله الهادى

وأما زهده :
فهو الزاهد على الحقيقة، ولا يغرنك توجهه فى الملبس والمأكل والمشرب، فإنك إذا عرفت حقيقة الزهد ألبسته هيكله، فإنه لو كان حقيقة الزهد ترك الترفه فى المأكول والملبوس ونحوهما، لما كسى النبى - صلى الله عليه وسلم - حلة قيمتها سبع وعشرون ناقة٠
وقد اتفق أنه -صلى الله عليه وسلم- أزهد الزاهدين٠

ولبس أبو حنيفة حلة بألف دينار٠
وحين قدم عمر - رضى الله عنه - إلى الشام، وجد معاوية قد اتخذ المراكب الحسنة، والخيل المسومة، وترفه فى الملبوس والمأكول٠
فقال له : ما هذا الأمر الذى أنت فيه يا معاوية ؟
فقال : يا أمير المؤمنين أنا فى زمان وبلد يحتاج إلى ذلك٠
فقال له : أنت وذاك٠

وكانت ترفع أذيال الليث بن سعد بكلابيب الذهب٠
ولبس - صلى الله عليه وسلم - القبا المزور بالذهب قبل تحريمه٠
ذكره ابن حجر فى كتابه " در الفخامة فى در الطيلسان والعذبة والعمامة " فاطلبه إن شئت٠

وكان - صلى الله عليه وسلم - يعجبه الحلوى والدُّبَّاء، ويحب اللبن وشربه، وليس هذا لحله وعدم النهى عنه، ولا من اتباع النفس هواها لما علمت من تبرئة ساحة جناب النبى - صلى الله عليه وسلم - من ذلك٠

بل حقيقة الزهد :
أن لا يركن الإنسان للدنيا ولذاتها، وأن لا يختص فيها بشىء من النعيم دون الآخر، وإنما يعطى المراتب حقها، فإن أنعم الله عليه نعمة أظهرها عليه، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده٠

ولا ينافيه كونه فرحًا بها، ومحبًا لها لأن الفرح والمحبة تابعان للنية، فإن كان فرحه ومحبته لها لأجل كون الله يحب منه ذلك، لما علم من الحديث فهذا من المحمودية، وهو حقيقة الزهد، وإن كان لأجل الخيلاء، والتميز عن الفقراء، هذا حتما المذموم وهو حقيقة حب الدنيا، والميل للذاتها٠

ولذلك لما ذكر عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكبر والخيلاء.
قال له أصحابه : إن أحدنا يحب أن يكون مركوبه حسنًا، وملبوسه حسنًا.
فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هذا من الجمال، والله يحب الجمال، وإنما الكبر بطر الحقِّ، وغمطُ الناس ».

إذا تمهد هذا فنقول :
قد علمت ما معنى أنه كان على فاقة من العيش، وانظر كيف لما جاءته الدراهم القليلة المشار إليها آنفًا، ترك الأسباب الدنيوية المتسفلة عند الله تعالى، وبه تعلم ما مهدناه.

ومع ذلك ما رؤى إلا شاكرًا، فلم يزل الله يوسع عليه حتى اجتمع بالسيد الصديقى وأخذ عليه كما سيأتى.

فضاف السيد بعض الناس بمصر، فشرط عليه السيد أن يكون مبيته فى الأستاذ الحفناوى، وكان هو وحريمه عند الرجل، فانتقل السيد عقب الضيافة إلى بيت الشيخ، فأرسل ذلك الرجل بفرش وغطاء.
فقال السيد : ما هذا ؟، فقال له : وأنت ما عندك ؟ فقال : لا لم يكن عندى سوى طرَّاحة ولحافين، فرفع السيد بيده ودعى له بالتوسعة.

ثم سافر إلى (كلمة غير واضحة) فكان كلما أرسل إليه مكتوبًا، يدعو له بالتوسعة.
وقال له فى أستاذية : إن الذى يتصدى للتسليك ونفع الناس، يحتاج إلى دنيا يواسى بها الخلق.
فقال ـ رضى الله عنه ـ : فما مضت تلك السنة حتى تكامل عندى اثنى عشر لحافًا، وثلاث طراحات أو أربعة.

ومع ذلك إن تيسر عنده قوت قال : على الدنيا العفا، وإن لم يتيسر قال : على الدنيا القفا وعفا، ثم يقول : يا رب هذا خير كثير علينا، ولا نعلم من أى جهة هو.

قال -رضى الله عنه- مرة : لا أعلم فى بيتى إلا حلالًا محضًا.
قلت : ولذلك كل الناس يجدون لطعامه لذة، وخصبًا فى البدن، ويود الآكل ألا يشبع منه.

ومن زهده : عدم ركونه إلى الدنيا فى شيء ما ، ولا إلى أهلها.
أرسل إليه بعض الأمراء بمصر، وكان إذ ذاك كبير يشار إليه، يطلب منه طائفة من جماعته يذكرون الله تعالى فى بيته، فى كل ليلة جمعة، ويرتب لهم نفقة معلومة فى كل شهر.
فقال لرسوله :
أنا لا جماعة لى، وإنما هم قوم يذكرون الله تعالى، ويأكلون من شوربة الجامع الأزهر، ولو ذهبوا إلى بيته ، وأكلوا من طعامه لانطمست قلوبهم من أكل الحرام، وحرموا الانتفاع، فهذا أمر لا يمكن أبدًا، ورفض ذلك.

فهذه هى حقيقة الزهد :
إذ لو كان له ميل إلى الدنيا ومألوفاتها، لرغب فى ذلك، ولطالما تصل إليه هدايا ويردها، ومتى علم أن فيها شائبة غرض دنيوى يردها كيفما كانت، ومتى خلصت من الغرض المذكور فإن علم أنها حلال قبلها، وإلا ردها أو أعطاها لمن يستحقها.

وقيل له : لم لم تشترى بيتًا ونحوه ينفع أهلك.
فقال : ما دمت طيبًا لا أدخر سببًا من حطام الدنيا لا لى، ولا لأهلى، فإذا مت فأهلى لهم الله، ها أنا قد عشت بلا شىء.

وأنثر لسان حاله :
إن الذى وجهت وجهى له * هو الذى خلفت فى أهلى
فإنه أرفق منى بهم * وفضله أوسع من فضلى.

ومما يزيدك يقينًا فى زهده : أنه لو سأله إنسان أعز حاجة عليه إلا أعطاه إياها كائنة ما كانت، وكان يجد لذلك أنسًا وانشراحًا.
ولا يعلق أمله بشىء من الدنيا بأى مطمح، وحاله الدار الآخرة يعرف هذا كل من يعقل.
دخلت عليه مرة فى خلوة، فرأيته لابسًا جبة من صوف سوداء.

حكى : أن رجلًا دخل على الشيخ البكرى صاحب السجادة بالقاهرة، فوجده فى رفاهية وملبوس حسن، فقال فى نفسه : هذا ينافى الولاية والصلاة.
فكاشف عليه الشيخ بذلك، ثم دخل خلوة وأدخله معه، وقلع ما كان عليه من الثياب الظاهرة، وإذا هو لابس تحتها جبة لا تساوى درهمًا، وتلك حلة الناس، ولكل مقام مقال.

قلت : ذكر أن العز بن عبد السلام، أو قال : عبد العزيز الديرنى :
كان يطوف بالبيت وهو محرم، فرأى رجلًا يخل بأركان الطواف، فأرشده إليها فأبى أن يقبل كلامه، وقاله له : ما عليك بها.
ثم غدا إلى منزله، ولبس حلية العلم، وزينة الحياة الدنيا ثم جاء المسجد.
فاتفق أنه صادف الرجل يطوف ويخل فى طوافه، فأرشده فامتثل أمره، وقبل منه.
فلم يراع إلا الهيئة.

أخبرنى العلامة الثقة الفوى، قال :
كان الشيخ وهو فى الفاقة حين كان يكتب الكراريس مرتبًا لجماعة من المجاورين والفقراء، فكان يعطيها لهم كل جمعة، فهذه حقيقة الكرم لأنه جود من قلبه فى وقت قبض.

ومن بديع كرمه : أنه يسمح بما وجد، وإذا سأله إنسان شيئًا من الدنيا وهبه له مع انبساطه إليه.
ولقد رأيته يسر بما يعطيه وبسؤاله، وإذا سئل قدرًا لا يعطى إلا زيادة عن القدر المسئول عنه.

وله صدقات خفية كثيرة لم يطلع عليها أحد، يصل كل جماعته بالصلاة الوافرة القريب منهم والبعيد، ويتفقدهم فى المواسم بالملبوس، والمصروف ونحو ذلك، ونفقته فى بيته تدل على وافر كرمه، يجتمع على سفرته كل يوم من الفقراء الواردين نحو الأربعين، وقد تجاوزت الخمسين والستين، ومن شروق الشمس إلى غروبها، والخلق ترد بيته للأكل والشرب فينزلون بخير كريم، ويجدون أفضل قرى٠

وله بيوت يصرف عليها دائمًا، وأناس لهم عليه رواتب، ونفقته لا تنقطع أبدًا٠
واتفق أن رجلًا وهبه فدادين يحرثها فتصدق بها جميعها، وانسر لذلك٠

وله صدقات وافرة فى موالد السيد البدوى، عمت بركتها الوجود٠
وله فى شهر رمضان نفقات جزيلة وصلاة وافرة، اقتداء به - صلى الله عليه وسلم -٠

وسألته أمرًا، فقال لى : أذنت لك أن تتصرف فى بيتى تصرف المالك فى أملاكه٠
وحين دخلت عليه من الحجاز المرة الثانية، قال :
أهلًا وسهلًا على ما بها ومرعاها، تجد عندنا أفضل ظنك إن شاء الله٠

وما سألته مرة دينارًا إلا أعطى دينارين وثلاثة٠
ولقد حلف لى بعض من أثق به : أنه ينفق من الغيب، قال : لأن حاله فى النفقة كبير، ولا يوجد عنده أمير، وليس له جهة كجامكية (جامكية : مرتب موظفى الدولة)٠
ولا تجارة، ولا وظيفة، بل هو مجرد عن ذلك كله، فهذا ما يؤكد من أنه ينفق من الغيب٠

قلت : فذكرت له مرة ذلك، فأخبرنى : أنه لا يعلم للرزق جهة، وإنما هو فيض إلهى وستر ببركة دعاء أستاذنا البكرى - رضى الله عنه -٠

وما سأله أحد فى أمر النفقة إلا قال له : أنفق بلالًا ولا تخش من ذى العرش إقلالا٠

وأبلغ ما يكون من كرمه الذى لم يسمع بمثله أحد : أنه لو رأى إنسانًا فى نومه أنه أعطاه شيئًا ثم أتاه يجد ما أعطاه له حقيقة٠

من ذلك : أن رجلًا مشهورًا بالصلاح نام فرآه فى النوم، وقد أعطاه دراهم، فانتبه فوجدها فى كفه، فحفظها عنده، أو هو ضيعها، لم يحضرنى٠

ووقع لأخى أيضًا نظير ذلك٠
وأخبرنى أخ صدوق : أنه رآه فى النوم يفرق تمرًا، وأعطاه نصيبه فانتبه فوجده فى كفه٠
وآخر أيضًا أعطاه ست تمرات فوجدها فى كفه٠

ووقع لى أنى رأيته فى النوم مرة، وقد أعطانى نصفين من الفضة، وقال لى :
استعمل عليها كذا، وضعهما فى الكيس، فاستعملت ما أمرنى به، ثم انتبهت فكنت فى كل جمعة أرى نصفين تحت الكرسى الذى أجلس عليه، وذلك فى الحجاز، ومكثت معى مدة.
ثم أخبرت بها بعض الناس فانقطعت.
فانظر وفقنى الله وإياك إلى هذا الكريم وكرمه.

واتفق أن إنسانًا سأله أن يعطيه الكسوة التى كان يلبسها، فقلعها حالًا وأعطاها له.
وآخرون عاملوه بذلك كثيرًا فجوده أسرع من السيل إلى منحدره.

قلت : وقع لبعض محبيه أنه أهدى له هدية عزيزة عليه، ثم قال له : هذه عندك على سبيل الأمانة، فإنى أعلم متى سألها أحد تعطيها له.

فما سمعت أذى ولا عينى رأت فى الكرام مثله، فإنه يعطى لا لغرض، ويفرح بما يعطيه، ولا يعلل إعطائه بشىء، وهذا حقيقة الكرم، وأزيد من جوده من قلة، فرضى الله عنه وأرضاه.

وأما تواضعه :
نسرد لك ما يدل عليه فى كرم خلقه :
منه : أنه لا يفرح بمدح من يمدحه، ولا يثبت لنفسه مزية، بل كلامه وحاله فى أعلى درجات الذل والإنكسار، وكلما أثنى عليه أحد يقول : اللهم حقق ظنه ولا تخيبه.

ومدحته مرة بقصيدة، فقال : ليتها صادفت محلها.
وربما إذا مدح يبكى، ويقول : من أنا ؟ ما قيمتى ؟ إن هو إلا أحوال المثنى نفسه، وأما أنا فبعيد عن هذا المرمى.

ومنه : أنه لا يحب البشارة المشهورة التواتر المذكورة فى الفضل الآتى، من " أنه يشفع فى أهل عصره " حتى إنه كلما رآها فى عبارة أو قصيدة كشطها.

وكان السيد الصديقى - رضى الله عنه - أرسل مرة لوزير مصر مكتوبًا، وكان بينهما مكاتبة فذكر فيه الشيخ، وذكر أنه يشفع فى أهل عصره، فأرسل إليه الوزير المكتوب فكشط منه هذه اللفظة.

وما دخل عليه أحد ممن فيه رائحة علم أو صلاح إلا أجلسه فوقه، وجلس بين يديه كالمريد، وما سمعته يخاطب أحد إلا بلفظ يا سيدى.

وأضافه مرة رجل من مشايخ العريان الكبار فى أثناء الطريق، وهو متوجه إلى زيارة السيد البدوى - رضى الله عنه - فأجلسه فى أعلى داره، وأكرمه بما يليق بإكرامه.

فاتفق أن رجلًا ضيفًا نزل فى ذلك البيت أيضًا، وهو من علماء الإسلام الأفاضل، فأنزلوه فى ناحية منه من غير أن يقوموا له بوزن كعادتهم معه، فسمع الشيخ به، فقال :
لا يمكن أن يكون هذا الشيخ فى أسفل الدار، وأنا فى أعلاها، وقام ونزل إليه، وأطلعه إلى المكان الذى كان فيه، وأجلسه مكانه.
فانظر إلى هذه النفس، وهذا التواضع.

ورأيته مرة وقد لقيه شيخ السادة الوفائية بمصر، فنزل من فوق بغلته وقبل يده، وهو راكب !
فتأمل سر هذا التواضع الذى رفعه هذه الرفعة.

ومنذ عرفته لم أره إلا متواضعًا، غير مدع حالًا ولا مثبت لنفسه مقامًا، ومن ادعى خلاف ذلك فعليه البيان.

وقال له بعض تلاميذه : إنى رأيت فلانًا فى النوم يقول لى : شيخك يشفع فى أهل عصره.
فقال له : يا هذا الله يحقق الظن والرجاء، أما أنا فلا أدرى كيف المنقلب، القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

وسمعته يقول : كلما خلوت بنفسى لا أذكر إلا الموت وأهواله، وما أدرى كيف الحال.
وكنت جالسًا معه ليلة، والجماعة يذكرون الله تعالى، فقام منشد القوم وأنشد قصيدة له ستأتى الإشارة إليها.
فبكى حتى اخضلت لحيته بالدموع، وقال : يا رب لا تؤخذنى، يا رب لا تخيب ظن أحد من عبادك فى عبدك، حفظ الله حياته على الوجود.

وأما فرحه :
وهو قطعًا إنما يقصد بذلك جبر قلوب الناس، وإيناسهم، وإظهار السرور بهم.
ولهذا كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يستعمله فى هذه المواطن، وفيه فرجة للنفس، وتنفس من كدورات الأكوان، وفيه تأليف لأهل النفرة عن الخير، وأمان لأهل الخوف، فيجسر السائل بذلك على سؤاله، ويظفر المرتجى طيب نواله، ولا يفعل غالبًا إلا لذلك، ومع ذلك لا يقول إلا حقًا، يعرف هذا من يذوق كلامه، ويفحص عن مرامه.
ويستعمله معى كثيرًا، وهذا كشف منه - رضى الله عنه - عن حالى لما أعلمه من نفسى.

ومن أعجب ما وقع لى منه فى هذا الباب، وبه تعلم ما أشرنا إليه من حقيقة مزحه، وبعد مرامه عن العقول من أول وهلة :
وذلك إنى سافرت معه إلى زيارة القطب النبوى سيدى أحمد البدوى - رضى الله عنه - فى البر، وكنت راكبًا حمارًا لى فأصابه وجع فى رجله، فصار يعرج بسببه، فيتخلف عن مساواة غيره فى السير.

فنظر لى سيدى الشيخ، وقال : ما بك تتخلف ؟
فأخبرته بعلة الحمار، فصار يمزح معى، ويقول لى : يا أبى حمير ما فعل الحمير ؟
فأقول : ها هو على ما هو عليه.
فيقول لى ممازحًا : أشهد بأن فىّ البركة وأذعن.
فأقول : الأمر لله.
ثم سرنا هينة، وإذا الحمار قد زال ما كان به من العرج، وصار أسبق الدواب حتى وصلنا إلى قرية لاحت بها نار قوية.

فنزل بها الشيخ، ونزلنا معه، فقال لى : بعد أن جلسنا، ومن وعثاء السير استرحنا :
يا أبا عمير ما فعل الحمير ؟ فقلت له : إنه قد شفى، وأحسن فى المسير، وزال ما كان به من التصفير.
فقال : انظر إلى بركتى وتأثيرها.
فقلت له : ليس له من فى هذه ولا جميل، وإنما الجميل لحضرة السيد.
فقال لى رجل كان حاضرًا إنى أسأت الأدب مع الشيخ، حيث لم أثبت له صنيعًا، وأثبته لغيره، لأن فى اصطلاحهم إذا أطلق السيد ، لا ينصرف إلا لسيدى أحمد البدوى عمت بركاته الوجود.

وأخذ الكل يتكلم فى هذه العبارة، ويكثر فى اللفظ، وحين بلغنى قولهم ذكرت العبارة فى كتاب الرحلة، وأيدتها بكلام حاصله :
أن قول الشيخ انظر إلى بركتى، يشتمل على ظهر وبطن.

أما ظاهره : فيشير إلى موطنين :

أحدهما :
أن هذا من باب المزح، وهو يدل على كمال التواضع، فمخالفة الغرض من الجواب خروج عن المهيع، والأدب مع الأشياخ موافقة أغراضهم، على ما فى المثل " الإنشاء خير من الأدب " والدليل على ذلك المقام.

وقوله " يا أبا عمير ما فعل الحمير " : كان يشير إلى معنى الحديث المسمى فى باب مزحه - صلى الله عليه وسلم -، ومما يؤكد ذلك : أن الشيخ مند عمره لم نعهد عليه دعوى حال كما علم أن كلامه مشحون بالتواضع.

وأيضًا نفعنا الله به : هو فى أعلى درجات التجلى فصدور ذلك منه على سبيل الدعوى مستبعد، ومن ظن ذلك فقد خالف، وعاند، وأبعد، وينبغى لمن سبق إلى ذلك أن يرجع عنه، وإلا فيلزمه التنقيص الذى مراده معنى الفدا لا الوقوع فى ورطة الإنكار.

ثانيهما :
أن المقام مقام بسط وأنس لأننا كنا فى وعثاء السفر ومشقته، فأحب إزالة العناء بالبسط، وهو لا يحصل إلا بمثل هذه الألفاظ.
وسلف أن مراد المريد مع مراد الشيخ، فليلاحظ عند مخاطبته له غرضه، ثم يجب بما فهمه منه.

وأما باطنه :

فإن الشيخ حين قال ذلك رفع كفيه، وأشار إليهما عند قوله : انظر بركتى بعينيه، فهو تجوز باسم المسبب عن السبب، يفهم منه أمر عجيب :
وذلك كأنه قال لى : كفى ولا تلتفت إلى غيره فإنى أعقبك بدله ما هو خير منه، وإن لم يشف فلا تنزعج.

فقوله فى الجواب للسيد : أى ثابت لك ومحقق عندى قال فى السيد عهدية ذهنا، والمعهود ليس إلا هو.
فتأمل حق التأمل.

وكنت معه يومًا فى روض أنيق، وقد ماس منه كل غصن رشيق، فجلست فى ناحية أكتب فى المقامة التى وضعتها فى مدحه، وسميتها " فيض المغنى بمدح الحفنى " العجيبة المنوال لاشتمالها على سائر الفنون الشعرية التى هى النسب، والموشح، والدوبيت، والزجل، والمواليا بأنواعه الثلاثة، على نبذة من الموشحات الموسيقية، ونبذة من المحسنات البديعية، والجناس، والقلب، ونوعى الاقتباس.

وكنت إذ ذاك فى فن المواليا، فقلت مواليا قرقيًا، وهو :
قالوا تحب المدمس قلت بالزيت الحار * والعيش الأبيض تحبه قلت والكشكار
قالوا تحب المطبق قلت بالقنطار * قالوا إيش فى الخضارى قلت عقلى طار

فقال : الشيخ الحفنى ماذا تكتب ؟
فأخبرته، وأنشدته المواليا فضحك، وقال مازحًا :
أنا لا أحبه بالزيت الحار، وإنما أحبه بالسمن البلدى، وأنشد :
قالوا تحب المدمس قلت بالمسلى * والبيض مشوى تحبه قلت والمقلى

قلت : وقد شرحت هذا المواليا بلسان القوم شرحًا لطيفًا.
ثم قال لى : أحدثك حدوتة بالزيت ملتوتة، حلفت ما أكلها حتى يجى؛ التاجر، والتاجر فوق السطوح، والسطوح عاوز سلم، والسلم عند النجار، والنجار عاوز مسمار، المسمار عند الحداد، والحداد عاوز بيضة، والبيضة فى بطن الفرخة، والفرخة عاوزة قمحة، والقمحة عند الأجران، والأجران عاوزة الدراس.

قال : أتدرى ما معنى هذه ؟
فقلت له : لا أعلم إلا ما علمتنى.
فقال :
أحدثك حدوتة بالزيت ملتوتة : يعنى السر الإلهى، والسلاف الأحمدى الأولين الممزوج براح القرب والتقريب، المدار من يد الحبيب.

حفلت ما أكلها : أى أتناولها فإن المقصد لا يتم بلا وسيلة، والسالك قبل كل شىء يحصل حتى يجئ التاجر، أى : المسلك العامر.
والمراد به : المرشد الكامل، والمربى الواصل.

والتاجر فوق السطوح : لتلقى معارج الروح لا يذهب ولا يروح، بل إليه يراح، وبه تنتعش الأرواح.

والسطوح عاوز سلم : يتوصل به إليه حيث أن المدار عليه، إذ لا يمكن صعود بلا معراج، ولو أمكن لفعل بالأولى صاحب المعراج.

والسلم عند النجار : وهو الأستاذ الكامل المسلك الواصل.

والنجار عاوز مسمار : يثبت به سلم القرب والوصول كى يوصل لمنازل الحصول.

والمسمار عند الحداد : وصانعه المخصوص به المقيم سرجه.

والحداد عاوز بيضة : إذ لا يكن شىء بلا شىء، والفانى لا يفرط فيه حى، ومن عمل عملًا وأتم أمره استحق على عمله الأجرة.

والبيضة فى بطن الفرخة : من أرادها فلينصب فيجد فائها مخبوءة فى صدفها، ومنفردة عن صنفها.

والفرخة عاوزة قمحة : كى تنتعش بها فتنتفح نفحة لتلقى ما فى جوفها، وذلك من عزتها وفوقها.

والقمحة عند الأجران : لأنها ظرفها.

والأجران عاوزة الدَّرَاس : ودراسها ليس إلا الجد والاجتهاد، لمن أراد أن يرتع فى رياض الإسعاد.

فكل هذه درجات للسالك يصعدها ، ومسافة لسيره يقطعها، وثم خواص طويت لهم السبل كلها، ونالوا كلما راموا من مشتهى.

فألق السمع لمعان تنور البصيرة، وتحسن الطوية والسريرة، وتأمل أحوال القوم ومطلبهم، قد علم كل أناس مشربهم، وكل فى فلك يسبحون، وما ربك بغافل عما تعملون.

فانظر رحمك الله هذا المزح الذى هو حقيقة الجد، وكان شيخه البكرى يمزح معه.
فيقول له : دبى يمعكك معكًا.
إذا تأملت هذه العبارة رأيتها محشوة علمًا وعرفانًا - رضى الله عنه وأرضا ه-.

وأما باقى أطواره، وأحواله من أكله، وشربه، ونومه، ولبسه :
فغالبها يعلم مما سبق، نعم هو قليل الأكل جدًا، متقشف فيه غاية التقشف، فربما أكل بين اليوم والليلة كسرة بملح أو عسل، أو تمرات أو نحو ذلك٠
وقد يطوى اليوم كله واليومين لا يتناول إلا ما ندر، وسيأتى فى فصل الخوارق شبعه بنحو الأكل فى النوم٠

وما رأيت عنده شيئًا من المأكول الفاخر، وكان أكثر ما يحب الثريد٠
ولذلك قل نومه، وكان يبيت الليالى ذوات العدد لا ينام، بل يبيت الليل كله فى ذكر، وفكر يشدوا باسم الحبيب، فيكثر الحنين والنحيب، وينشد أبياتًا بصوت حزين٠

فمما سمعته منه فى الدياجى موشح الدلنجاوى :

يا هلالا قد بدا لى من وراء الحجب فى جلابيب الكمال
ما دروا صاحبى إن قلبًا منك خالى
ليس بالقلب وفؤاد عنكم سالى واجب السلب

ثم أنشد مواليًا :

بحياة يا ليل قوامك وصوم الحر
تحجز لنا الفجر دا فوت الرفاقة حرَ
لما يجى الفجر يصبح ركبهم منجر
أزداد لوعة ولا عمرى بقيت أنسرَ

ثم أنشد :
أأظمأ وأنت العذب فى كل منهل
وأظلم فى أرض وأنت نصيرى
خبيرًا بضعفى راحم لشكيتى
قد يمن على تيسير كل عسير
وعار على راعِ الحما وهو فى الحما
إذا ضاع فى البِيداء عقال بعير

وسمعته ليلة ينشد :
فى الذر كنا نجومًا يستضاء بنا * وللبرية نحن اليوم برهان
من صدع عنا فبَرَهُوتُ مساكنه * ومن أتانا فجنات ورضوان

ثم أنشد مواليًا :
إن جدت أو جرت أو صديت أو جافيت * أو حلت أو ملت أو واصلت أو وافيت
أنت الحبيب الذى فى القلب قد حليت * وأنا على العهد ما خنتك ولا اختليت

ثم أنشد آخر، وهو :
يا من إذا قلت يا كل المنى صل حال * صلتى بمن خلق الإنسان من صلصال
إذا تذكرت ريقًا باردًا سلسال * وقلت : يا دمع عينى بالدما سلْ سال

وجلست معه ليلة فأنشد :

أشكو إلى الله من نارين واحدة * فى وجنتيه وأخرى منه فى كبدى
ومن ضعيفين صبرى حين أذكره * ودَه ويراه الناس طوع يدى

وليلة أخرى أنشد :
قم واسقنى قهوة ليلية فضحت * بنت الدنان وشنف لى الفناجينا
تدعو إلى نحو مافيه البقاء * ولو دعت إلى نحو مافيه الفنا جينا
لو أن ألف أمراء طافوا بحانتها * راموا النجاة رأيت الألف ناجينا

وقلت له ليلة : ما أبلغ بيت السبعينية :
خطرات النسيم تجرح خديه * ومس الحرير يدمى بنانه
فقال لى : أبلغ منه قوله :
توهمه قلبى فأصبح خده * وفيه مكان الوهم من قطر أثر
ومر بفكرى جسمه فجرحته * ولم أرى جسمًا قط يجرحه الفكر.

وسمعته ليلة يقول :
لى خمسة أطفى بهم * نار الجحيم الحاطمة
المصطفى والمرتضى * وابناهما والفاطمة.

ثم أنشد :
يا بدر أهلك جاروا * وعلموك التجرى
وقبحوا لك وصلى * وحسنوا لك هجرى
فليفعلوا ما أرادوا * فإنهم أهل بدر

وتحدث معى يومًا فسمع منى القاف، فقال : هذه قاف العرب لأن أهل الحجاز جميعًا الآن ينطقون بها، فأنشدنى بهذا اللفظ :
أقول لظبى مر بى وهو راتع * أأنت أخو ليلى فقال : يقال
فقلت : يقال المستجير بار منكم * إذا ما جنا ذنبًا فقال : يقال
فقلت : أفى ظل الأراكة والحما * يقال ويستظل فقال : يقال

وسمعته كثيرًا ما ينشد فى الدياجر :
خل الغرام لصب دمعه دمه * حيران توجده الذكرى وتعدمه
وسامح له بعلاقات علقن به * لو اطلعت عليها كنت ترحمه.

ولو أردت إحصاء كلامه وأشعاره فى الليالى فضلًا عن الأيام، لما وجدت فى الطوق وسعًا، وجميع أهل حضرته والملازمين له يعلمون ذلك، وإنما أنا ضيف راحل، وهذا مقدار خلق الضيف، وعلمه بعض أحوال من نزل به، ولا بجميعها.

وبالجملة : فمناقبه أكثر من أن تذكر، أو باليراع بعضها يسطر .
قلت : وما أسلفناه من الأشعار، والمواليا ليس من نظمه، وإنما هو مما يتمثل به من النظم.

<u>الفصل الرابع : فى نبذة من كلامه نثرًا ونظمًا.</u>

اعلم أنى لم أقف على شيء من نثرياته إلا ما ندر، وغالبه لا يكون إلا فى مراسلاته إلى أحبابه، وتلاميذه، وأشياخه، ولو وقفت على بعضها، فوالله العظيم ما رأيته من جام هذا النفس من فحول الشعراء يلقه الفقراء، ولا سجاع جزلة المعانى خالية من الحشو، ومن البشاعة، ومن التعقيد، ومن التنافر.

فى أعلى درجات الفصاحة، تكاد كل فقرة من كلامه تأخذ بالعقول، يكبو دونها جواد الفحول، وينبو عن وقعها فى القلوب السيف المسلول.

كتب إلى اثنين من تلاميذه مكتوبًا يبهر الكُتَّاب، ويذهل الألباب، لم أقف إلا على آخر لفظة فيه كتبها من أحدهما، وهى :
" ومن بلغنى منكما عنه انحراف عن أخيه، فله منا ما به تخلق، لأنه بيده باب كل خير أغلق".

وأحفظ بعض فقراته فى مراسلة لى، وهى :
" وبعد، فإن سألت عن المحب المتوجه بقلبه دومًا إليك، القاصر نظره فى الخافقين عليك.
ثم قال : فقد توجهنا بدعواته قارعين أبواب الرجاء بأنامله الأجابات، ولا تنسانى من دعائك الصالح بتلك المعاهد، لاسيما بحسن الختام أنجح المقاصد ".

فانظر رعاك الله هذا التنزل، وهذا التواضع، وهذه النفس فى اللسان، وهو يقول لى مرة فى مراسلة : لو رزقنا الله لسانًا كلسانك لكتبنا لك مثل ما كتبت لنا شكرًا لإحسانك، ولولا علمنا برضاك بأقل من هذا المكتوب، لأحجمنا بالعجز حياء عن المطلوب، ونحو ذلك من ألفاظ كأنها أسلاك الجواهر، وبها يضرب المثل السائر :
" كم ترك الأول للأخر وفصاحته فى إلقاء العلوم " يضرب بها المثل بين العلماء فى الجامع الأزهر.

وكذا براعته ومعرفته :

حضرت على الشيخ العلامة قدوة أهل المعقول والمنقول " الشيخ على العدوى " فى شرح الهمزية لابن حجر، فسألته عن مسائل فأجابنى، ثم قال :
يا هذا اعذرنى ولا تؤاخذنى فإن من حضر الأستاذ الحفناوى لا يلذ له سماع أحد، ولو ضربنا أكباد الأبل للعلم، ما حصلنا قطرة من بحره.

وأما لسان أهل الحقيقة :
فهو به ضنين جدًا، وإذا سئل لا يجيب إلا على طرف التمام، وناهيك يكتمه لهذا العلم والمواجيد منقبة وملكة.
وسمعته مرة يقول لبعض أتباعه : إياك والتكلم بهذا اللسان، فإن هذا الزمان ليس بزمنه، وحرضه على الكتمان.

قلت : وهو الذى أشار إليه - رضى الله عن ه- بقوله :
يا رب جوهر علم لو أبوح به * لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى * يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وأشار إليه أبو هريرة -رضى الله عنه- فى قوله :
" حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعاءين، أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا البلعوم ".
وأشار بالأول : لعلم ظاهر الشريعة، وبالثانى : لعلم باطنها، وهو الحقيقة.

والشيخ - رضى الله عنه - مقتد بهؤلاء فى كتم ذلك، لكن منهم من أذن له فتكلم، إلا إنه عرَّض نفسه للبلاء وغيره.

أخبرنى العلامة الشيخ حسن الشبينى : أنه سمعه يقول :
" عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى ".
قلت : وهذا ظاهر، ومع ذلك لم يتفوه من هذا المقام إلا بترس الكلام.

فقد أخبرنى السيد عبد الرحمن العيدروس :
أنه كلما رآه فى النوم يراه لابسًا ثيابًا بيضاء، ثم قالى لى : هذا مظهر الشريعة.
أى : فهو من قبيل أهل المظهر الأول منه.
ومنه يعلم ما أشرنا إليه.

وحين قدم السيد البكرى شيخه فى الشام، قال الشيخ الحفنى لجماعته :
توجهوا إلى حضرة السيد، واذكروا :
وإذا جاء نهر الله * بطل نهر معقل.
وله كلام موجز كثير.

أخبرنى الشيخ المذكور أيضًا أنه سمعه يقول ما معناه :
إن فعل المكروه من عامة أهل الطريق، كالمحرم من غيرهم٠
وفعله من خاصتهم، كالكبائر من غيرهم٠

وسمعته مرة يقول : من لم تعزه التقوى فلا عز له٠
فقلت له : يا سيدى أنا أحفظ بيتين فى هذا المعنى، فقال : ما هما ؟
فأنشدته :
من عرف الله فلم تغنه * معرفة الله فذاك الشقى
ما يصنع العبد بعز الفنا * العز كل العز للمتقى٠
فقال : الدواة والقرطاس، فكتبهما٠

وشكوت له مرة أحوال الزمان وأهله، فقال لى :
لا تنفر الناس فإنهم الآن على سمت واحد، ثم أنشد :
ولستَ بمستبقٍ أخاً، لا تلمهُ على شَعَثٍ، أيُّ الّرجال المُهَذَّبُ ؟٠

وسمعته يقول : خلق الله الشمس من ستين جزءا من النور، وخلق القمر كذلك٠
ثم أمر جبريل أن يضرب بجناحه القمر، فضربه فأخذ منه تسعة وخمسن جزءا، وأضافها إلى الشمس، فالسواد الذى يرى فى أوسطه أثر ضرب جناح جبريل٠

ثم كتب فيه جيمًا وميمًا وياء، ولامًا، وألفًا٠
فقلت له : لماذا عرفتم النور، وهل الأداة للعهد، وهل المراد نور النبى - صلى الله عليه وسلم -؟
فقال : نعم، وكل الأنوار مقتبسة من نوره - عليه الصلاة والسلام-٠

وسمعته مرة يقول : إن الدنيا إلا جيفة وحسب المؤمن منها الخرق٠
ثم أنشد :
خبزٌ وماءٌ وظلٌ * هو النعيمُ الأجلُ
جحدت نعمة ربى * إن قلت إنى مقلُ٠

وسمعته مرة ينشد :
لو فتشوا قلبى لألفوا به * سطرين قد خطا بلا كاتب
العلم والتوحيد فى جانب * وحب آل البيت فى جانب

وقال لى مرة : رأيت فى بعض الكتب أن القطب الغوث المبتلى به دائمًا الصداع٠

ثم قال : حدثت عن عروة ابن الزبير - رضى الله عنه - :
أنه كانت برجله جراحة، وخيف عليه منها، فقطعوا رجله وهو قائم يصلى، وكان أحد أولاده حاضرًا فمات حين رأى ذلك٠

فلما فرغ من صلاته وجد رجله مقطوعة، وولده قد مات٠
فقال : الحمد لله الذى قطعت لنا عضوًا، وأبقيت أعضاء، وأمت لنا ولدًا، وأبقيت أولاد، فلك الحمد على ما أخذت، ولك الحمد على ما أبقيت٠
فانظر هذا الخشوع الذى لم يشعر معه بقطع رجله، وموت ولده٠

فقلت له : وهذا خشوع أو أزيد ؟
فقال : فى هذا استغراق، لأن الخشوع سكوت الجوراح، فهو أكمل منه٠

ثم قال : وأنا أعتبر ما عليه الفقهاء بأن هذا الخشوع يبطل الصلاة٠
نجيبهم : بأن المبطل الخشوع الذى يغير من هو له كاشتغاله بأمر دنيوى٠
وأما هذا فاستغراق بالله ، فى حضرة الله٠

وقال لى مرة : كان عندنا شاعر يدعى النظم ومعرفته، فطارحنى فيه يومًا٠
فقلت له : أكتب ما حضرنى، ونظمت بيتين وهما :

بحار شوقى بأمواج الهوى عبثت * وفرقت حب وصل فى مجاريها
وحرمت مقلتى طيب الكرى شغفًا * بشادن قد سبا ريم الفلا تيها
قال : فأذعن الشاعر لفضله، وعجب لقوة استحضاره٠

ودخل الشيخ المنوفى على الشيخ الخليفى، وهو جالس عنده متشفعًا فى جماعة متجاهرين بالمعاصى، وكان الشيخ الخليفى قد طردهم وغضب عليهم٠
فسأله المنوفى فى الرضا عنهم، فقال له : إذا كنت أرضى عنهم فإن الله لا يرضى، كما قال فى كتابه العزيز٠

فقال الأستاذ الحفنى : قد حضرنى بيتان، فقيل له : ما هما ؟ فقال :
أتطلبون رضائى الآن عن نفر * قلوبهم بنفاق لم تزل مرضى
تجاهروا بقبيح الفسق لا ربحوا * إن كنت أرضى فالله لا يرضى٠

فانظر إلى هذا السبك العظيم العجيب، وتضمين حكاية الحال محاضرة٠
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء٠

ودخل عليه مرة شاعر، وقد عمل ألفية فى الحب، أو قصيدة فأسمعها له، فقال له أكتب ما حضرنى، فانتشى وأنشد :
الوجد وجدى لا ما ذقت منه فدع * ذكر الغرام فحال الصب شاهده
لا تدعى مثل قلبى فى صبابته * هوى فؤادى عذرى أكابده
فقال له : يا سيدى أنا ما قصدتكم، ومن ذا الذى يدرك شأوكم٠

ومن عجيب ما يقع لى : إنى إذا أكلت فى بيته لا أشبع قط من طعامه، ولو واليت الأكل دومًا، فسألته عن ذلك، فقال : نعم، ذكروا : " إن أكل المريد فى بيت شيخه ينقلب نورًا "٠

وله من بحر الهزج :

رعاك الله يا قلبى * إذا ما ملت للقلب
ولا بُلغت يا واشى * لما فى طيه سلبى
فمهلًا يا خلى مهلًا * فدينى فى الهوى حبى
وقد شطر هذه الأبيات مولانا السيد الصديقى، وشطرها غير واحد غيره٠

وقال عام رحلته إلى بيت المقدس لزيارة شيخه السيد الصديقى - رضى الله عنهما - مادحًا جنابه بقصيدة من بحر المجتث :

يا مبتغى أن يحيا * يرشف كأس الحميا
وسالكًا نهج قوم * شاموا جمال المحيا
ساموا لريح المعالى * طابوا مماتًا ومحيا
واستنشقوا طيب عرف * أحيا المعنى وحيا
اخرج عن النفس والزم * بابًا كريمًا عليًّا
وقم بسدة فضل * بها الكمال تهيًّا
وطف بكعبة خير * وأجملن منك سعيا
تراك فزت بقرب * وحزت سرًا وفيًّا
من حضرة قد تسامت * ذرا المعالى رقيًّا
قد اصطفاها لسر * ثم ارتضاها سميًّا
محمدى مقام * نال المقام السنيا
أجل من يتصدى * للناس يمنح هديا
سبط الحسين وصنو * خالى من اللهو أعيا
يا ابن الرفيق بغار * وابن العتيق فهيًّا
لابن رهين صروف * عما يروم نئيّا
فوجهن لنحوى * قلبًا به الميت يحيا
وقل : محمدنا اشرب * منا شرابًا صفيّا
حسيبكم من سواكم * أمسى غريبًا عريّا
صلى وسلم ربى * على الرسول المحيا
والآل ما قال صب * يا مبتغى أن يحيا

ومن كلامه فى مقام التحدث بالنعمة :

طاب الحديث وطاب الوقت والسمر * وأدرك الغرس حتى عمنا الثمر
ونلت كل المنى رغم العذول على * ما اشتهيه فهذا الروض والزهر

وكنت حين وصلت السويس فى رحلتى الثالثة، كتبت له مكتوب أشكو فيه بثى وحزنى، وما أصابنى من وعثاء السفر ومشقته.
فأرسل إلى الجواب يشتمل على قصيدة فريدة فى الباب، وهى هذه :

إن رمت أيها السرى * جميل عيشك المرى
فأم بحان أنسنا * محاذرًا التأخر
واشرب سلافًا صافيًا * من كأسنا المعطر
وطف ببيت أمننا * بالروح روحك اشتر
والثم برفضك السوى * ركنا من الردعرى
واكشف حجابًا مسبك * من مشقة فى سفر
فالشأن خل إن ترى * منحًا أنى فى خطر
فباللقا إن صفوت * نلت كل الوطر
وقل لازمة عدت * اطرق كرارا واقتصر
فقد أتيت منجدًا من * جيش بأسك الجرى
فللقرى هل فى القرى * سواه من منتصر
أمارتى منك أتى * هذا العنا فاعتبر
فلو صدقت ما جرى * ما قد جرى لا تنكر
يا ربنا فيما بقى * سلم بلطف عطر
مصليًا مسلمًا على زكى الفطر * وآله وصحبه نجوم هدى زهر
ما قال حفيفهم * إن رمت أيها السرى
أو ما موفق غدا * مسلمًا للقدر

وقال ضارعًا إلى جناب القطب النبوى سيدى أحمد البدوى -رضى الله عنه- :

حللت عقدة صبرى * ولست تقبل عذرى
يصمت فيك فؤادى * هيامه فيك عذرى
قد طال فيك سهادى * منوطًا ليلى وفكرى
إلى متى يا فؤادى * تطيل صدى وهجرى
قد ملنى كل خل * فاجبر بوصلك كسرى

قلت : قد تقدم أنه لاشتغاله بالإلقاء والإقراء للعلم، لم يعانى النظم كثيرًا، وله مواليًا من المكفر، لأن المواليا على ثلاثة أقسام : قرقيا، وبليق، ومكفر :
فالقرقيا : ما اشتمل على الهزل، والبليق : ما اشتمل على الغزل، والمكفِر : ما اشتمل المواعظ.

فمن ذلك قوله :
يا مبتغى طرق أهل الله والتسليك * دع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك
أن أذكرونى لرد المعترض يكفيك * فاجعل سلاف الجلالة دائمًا فى فيك.

وقوله :
حرك جواد الهمم واسلك طريق الحق * واصحب معك زاد أهل المعرفة والحق
ولا تمل للسوى تحرق بنار الفرق * وادخل جنان التقى تظفر بثانى فرق

وله من البليق :
بالله يا قلب دع عنك الهوى وأسلم * من كثر ميل ووافى عهدهم أسلم
والزم حما سادة من أمهم يسلم * واسلك سبيل التقى يوم اللقا تسلم

وله من البليق ، وكنت معه حين نظمه فى روض أنيق، فنظمت منه مواليًا وهو :
خطر على غزالى مر ما تكلم * فوق جفونه وقلبى والحشا كلم
إيش كان يضره إذا بالرأس لى سلم * حتى أسر مهجتى لولا السلام سلم.

واطلع عليه فعمل على الفور هذا المواليا :
يا خالى البال دعنى فى الهوى الفتاك * من أخبرك بالتسلى من به أفتاك
ارثى لحال المغنى فى دجا الأحلاك * وارحم محبًا بمن بالعقل قد حلاك

وكتب إلى بعض تلامذته مكتوبًا عجيبًا أحببت إيراده لكثرة فوائده، وهذه صورته :
أما بعد ، أهدى سلام بسر الحب نام تام، للحبيب الصفى، ومن بالعهد وفى، السرى الأسعد أحمدنا الأحمد، جملنا الله وإياه بلباس التقوى، وثبتنا وإياه على التمسك بالسبب الموصول الأقوى.
فقد وصلت الرسائل المنبئة بحفظ الوسايل، المشعرة بالصفا، والقيام على قدم الوفا.
والذى به نوصيك، وبسره الخفى نوافيك :

أن تدوم متنبهًا لتحرك النفس فى كل حركة ونفس خصوصًا عند إقبال العباد، وطلبهم الفائدة والإرشاد، فإنها ولو للمعمرين بالمرصاد، فلا ينبغى أن يغمد عنها سيف الجهاد، ومن زاد عليك إقباله، وتوجهت إليك بالصدق آماله، فاصرف قلبك إليه وعول فى التربية عليه، ومن عنك بهواه صد، بعد أخذك عليه وثيق العهد، فدعه ولا تشغل به البال.

وأنشده قول أستاذنا : " لمن عن طريقنا قد مال "

ألم تر إنا من قلانا سفاهة * تركناه غب الوصل يعمى بصده
ومن صد عنا حسبه الصد والجفا * وأن الردى أصماه من بعد بعده
ومن فاتنا يكفيه أنا نفوته * وأنا نكافيه على ترك حمده
وإنا غدًا لما نعد محبنا * وأتباعنا لسنانهُم من بعده

ومن أردت زجره للتربية، وإرشاده فليكن ذلك عند الإنفراد، إذ هو أرجى لإسعاده، ولا تزجر بضرب ولا نهر بين الناس : فإن ذلك ربما أوقع المريد فى الباس٠
ولا تلتفت لمن أعرض، ولا لمن يصحبك لغرض، وعليك بالرفق بالإخوان، سيما أخيك الشيخ حسن، فالخير لمن صاحب بإحسان، والأدب واللطف محمودان، والغلظة والحقد موبوقان، فاطرح القال والقيل، واصفح الصفح الجميل٠

ولك ولكل من أخد عنك أو أحبك منا، ومن أهل سلسلة طريقنا ما سرك، فأبشر إن علمت بما أشرنا بكل خير، ومزيد الفتح والمسير فى السير٠

وقال العلامة الشيخ حسن الشيبنى : سمعته يقول ـ يقصد سيدنا الشيخ أبو المكارم محمد سالم الحفنى ـ :
" المعاصى هى الغفلة عن الحق ، والطاعة هى الذكر للحق "٠

فانظر هذا الميزان الذى جمع فيه الدين كله، ولولا عدم الضبط لأوردت ما حكم كلامه بما لا يتفق عند حد، ولا يحصر بعدد، لكن إن شاء الله تعالى نزيل هذا المجموع بما نذكره بعد من :

أحواله وما يرد عليه :

منها : وكما أعطى الفصاحة فى اللسان، أعطى الذكاء المفرط فى الجنان٠
يدرك المعانى البعيدة النادرة، ويقيد مطلق الشوارد من الألفاظ المهملة فى المادة، فتجد تآليفه فى غاية التحقيق، وإذا أورد بحثًا لم تجد للزيف فيه عليه من طريق٠

ولذلك كان أشياخه لا يقدمون على فهمه فهمًا، ولا يجدون عند غيره من البحث علمًا٠
وكان وهو يحضر شيخه الشيخ عيد النمرسى، وقد ورد عليهم بحث، فصار كل من الطلبة يبدى ما فهمه فيه للشيخ فيرده٠
فألقى هو ما فهمه فأصغى له الشيخ وتأمله ساعة، ثم قرر ما فهمه، وقال : هذا هو الحق الذى لا محيد عنه٠

فقال له بعض من كان حاضرًا من العلماء : ما الأصل، لا تقدر إلا كلام الحفناوى، وترد فهم غيره، ما هذا إلا لغرض٠
فقال له الشيخ : تأمل كلامه وكلام غيره، وقل الحق والإنصاف، والله ما عليه من غطاء٠

وأعطاه الله ملكة قوية فى فهم رؤى المريدين، وتعبيرها على أسلوب غريب، وفى فهم إشارات العارفين وذوقياتهم٠

فمن ذلك : أن رجلًا قال خروج السيد الصديقى من بيت المقدس، وتوجهه إلى مصر لأجل الحج، إن السيد حشيشته خضراء فى بيت المقدس٠

فلما توفى السيد بالقاهرة، قال حضرة أستاذى :
تناولت قول الرجل : بأنه أشار بذلك إلى موت السيد فى غير بيت المقدس، وذلك لأن الحشيشة إذا كانت فى الأرض لم تزل يانعة خضراء، فإذا قلعت يبست فتموت٠

وسمعته يقول : الناس ثلاثة أقسام : معصوم، ومحفوظ، وضدهما ؛ وهذا القسم إما مهمل أو معتنى به٠
فإن من كان من المريدين أهل الذكر، والسير الذين شملتهم تربية شيخ :
فهذا غير مهمل، فإذا وقع منه ذنب أو خاطر نفسانى أو هوى شيطانى نبهه الله عليه حالًا، إما بحديث نفس، أو برؤيا الحشرات فى النوم ؛
كالحية، والعقرب، والثعبان، ونحوهما٠

ثم إن قواه الله تعالى حتى قتل ذلك العدو الذى رآه، فليعلم أن عقله غلب هواه، وإن وجد عنده ضعف أو فر منه عدوه ولم يدركه، فهذا يدل على ضعفه عن كسر شهوته ومخالفة هواه، فلينتبه بنحو التوبة والذكر والفكر، وهذا فى عناية الله بهذه الطائفة٠

وأما من لم ير شيئًا من ذلك، ولم يجد بدأ من التنبيه، فهذا والعياذ بالله مهمل :
أراد به شرًا٠

ثم قال : والمعاصى على قسمين : كبائر وصغائر :
فالكبائر : التى هى الغوائل الموبقات، وذلك ؛ كالقتل، والزنا، والسرقة، واللوط، ونحوها لا يكفرها إلا التوبة.
وهى التى أشار إليها النبى - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « المعاصى بريد الكفر ».

وأما عداها : فليست من الغوائل الموبقة، فيكفرها الذكر، والفكر، وفعل الحسنات.
وأخذ يتكلم فى هذا المعنى المعرض بما بهر العقل.

ثم قال : واتفق لى أنى رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - قد مات بجامع السلطان حسن بالرميلة، ثم أننا ذهبنا فغسلناه، وكفناه، ودفناه خارج القاهرة فى دمرداش.
فحصل عندى فرح، وقلت : بقى النبى - صلى الله عليه وسلم - قريبًا منا لنزوره، ونحظى به.

فأصبحت فقصصت رؤياى على شيخنا السيد الصديقى، وكان إذ ذاك بالقاهرة.
فقال : هذه الرؤيا تدل على موت الشريعة فى الرأى، أو فى ذلك المكان الذى مات فيه.

ثم قال :
فرعبت من ذلك، فما كان إلا عن قليل، وخرب جامع السلطان حسن، وسدت أبوابه، وبطلت منه الجمعة والجماعة حتى الآن.

قلت : هذه الحكاية شرح قوله - صلى الله عليه وسلم - :
« إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل له واعظًا من نفسه يأمره وينهاه ».

قال له بعض مريديه رؤيا، فقال على الفور : كم عدد " ثم " بالجمل ؟
قال : مائة وأربعون.
فقال : وعدد اسمه تعالى قيوم ؟ قال : مائة وست وخمسون.
فقال له : اضرب حروفه الأربعة فى أربعة، يصير ستة عشر، ضمها إلى عدد ثم، فيكون كعدد اسمه القيوم.

وكان ذلك المريد آنذاك فى الاسم الخامس من الأسماء السبعة، التى ستأتى الإشارة إليها إن شاء الله تعالى.
قلت : وقوله " اضرب الحروف الأربعة فى أربعة " :
أشار بالأربعة المضروب فيها : إلى عدد المرات فى تلقينه فى الرؤيا، والله أعلم.

الفصل الخامس : فى المبشرات الدالة على أنه يتشَّفع فى أهل عصره٠

لا يخفى أن شفاعته كغيره من صالحى الأمة جاء بها دليل السمع، فلا يسوغ إنكار ذلك٠
وفى الحديث : « يقال للعالم العامل على الصراط قف مكانك حتى تشَّفع لمن تريد »
وما رأينا فى العصر من قصرت عليه هذه الصفة على التحقيق إلا هو٠

حدثنى العلامة الفاضل الشيخ حسن الفوى : أنه سمع الشيخ العلامة الصوفى الولى الربانى الشيخ محمد البكلوشى، يقول :
انعقدت الخناصر على الشيخ الحفناوى فى تقديمه على أهل العصر ؛ علمًا، وعملًا، وولاية، كما انعقدت على سيدى أحمد البدوى٠

وأخبرنى الأخ الثقة الصالح الزاهد الولى المتجرد فى حب الله عن كل ما سواه، السيد محمد اليمنى المتوفى بجدة عام تسع وستين ومائة وألف :
أنه لقى الخضر - عليه السلام - ثلاث مرات، ومنحه سرًا جزيلًا : أنه طاف الدنيا ثلاث مرات، لم يدع فيها عمرانًا، ولا خرابًا إلا وصل إليه٠
وكنت أعلم صدق ذلك منه بأنوار تدل عليه٠

قال لى :
وسبب ذلك : أن مرادى الاجتماع بشيخ انعقد عليه إجماع أهل عصره لأسلك على يديه، فلم أعثر على ذلك أبدًا، حتى أتيت فى سياحتى هذه قرية فى أقصى اليمن٠
فسألت هل فيها أحد من أولياء الله ؟ فقيل لى : ولى شريف علوى بمكان كذا٠
فقصدت زيارته، فلما دنوت من خلوته نادانى : يا شيخ محمد قف مكانك٠
فوقفت باهتًا من معرفته بى، ولم يرانى، ولم أجتمع به من قبل ذلك٠

ثم قال : الدنيا بحر لا قرار له ولا ساحل، ودون ذلك غر، وإن يضرب ماؤها الساق، ودون ذلك برًا قفر لا ماء به٠

قال : فقلت له : يا سيدى ما فهمت الإشارة٠
فقال : البحر الذى لا ساحل له هو مصر، وبحرها الحفناوى فانزل به إن وصلت إليه، والغدران اليمن والحجاز، وما عدا ذلك فالخراب٠

قال : فرجعت وامتثلت إشارته، وقصدى التوجه إلى مصر٠
فقلت له : وأنا معك، فتوافقنا على ذلك بالمسجد الحرام٠
ثم نزلنا إلى جدة للتوجه فى المراكب إلى مصر، فأكترينا بها موضعًا، فمرض الشيخ محمد اليمنى المذكور ثمانية أيام٠

وفى اليوم الثامن عدته، فقلت له : أنت طيب ؟
فقال : لى يا أخى قد فرغت وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله۰
فإذا وصلت الأستاذ الحفناوى، فاقرأه منى السلام، وقد صرنا من المحسوبين۰

فلما كان صباح اليوم التاسع، توفاه الله تعالى فشق على، ثم رأيته فى النوم وهو يرتع فى رياض الجنة، وأطعمنى منها خوخًا ما كان ألذ منه ولا أهنأ۰
فانظر وفقنى الله وإياك إلى هذه المنقبة لهذا الأستاذ العظيم۰
ومنه يعلم : اجماع أهل العصر عليه۰

هذا وقد توالت بشارات من النبى - صلى الله عليه وسلم - فى النوم لغير واحد بأنه يشفع فى أهل عصره۰

وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « من رآنى فقد رآنى حقًا فإن الشيطان لا يتمثل بى »۰

وقد علمت مما ذكرناه :
ثبوت هذه المنقبة له، وإنما أيدت بالمبشرات النبوية، وطرزت حلتها بالإشارات المصطفية، غير الفاسى شارح " دلائل الخيرات " نقله فيه، عن بعض العلماء :
أن مثل المزايا والمكرمات، يعمل فيها بإخبار النبى - صلى الله عليه وسلم - فى عالم المثال۰
فافهم ذلك۰

فأول بشارة :

على لسان الإمام الهمام شيخ الإسلام الولى الصوفى الشيخ أحمد البنا، ثم الفوى - سقى الله مضجعه صبب الرضوان، وأسكنه أعلى فراديس الجنان - :

أنه رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وأخبره : بأن الله تعالى قد شفع شيخه الحفناوى فى أهل عصره.
وقد ذكرها السيد البكرى فى كتابه " الرحلة المصرية " وغيره، وأشار إليها فى مقصورته، حيث قال : " فى أثناء مبشرة له، ومن خطه نقلت :

ومن أمام الخلق كم بشارة * وافت بأن المنتمى ينجوا غدًا
وأنه يدخل جنات الرضا * دون حساب بل بإكرام طفا
وإن هو قد لجيء إليه واحتمى * فحاز مأملا عند اللجى
جمع كبير جامع لى ساقه * أجلهم حانى وأسقاهم لمى
أخصهم محمدًا الحفنى الذى * لحفنة يعزى حبى كل العلا
فإنه صافى وبالعهد وفى * فأمه يا مرتجيه وكفى
فيا مريد السير سر كسيره * علك أن تسمو أو تنموا اعتلا
بشراه وافته منا بشارة * وكررت من الحبيب المصطفى
بأنه شفيع أهل عصره * طوبى له فى صدقه عز سما
وقم ببابه لهوفًا صادقًا * ترى هناك ما به تهدى الملا
وادخل رياض درسه واشرب بها * كؤوس تقريب وتغريب ثملا
حباه بَيّاهُ الإله خصه * مزيد بر واصطفا واجتبا
وعم البر جميع صحبه * ثم محبه ومن له أتى
ومن أحب خادمًا أحبه * وما تلا تال علينا هل أتى
أو مصطفى صبحًا شد الطالب * حق الهنا لمن هنا رأى المنى

وذكرها فى غير ما قصيدة، وستأتى الإشارة إليها إن شاء الله إلى بعضها.

قلت : وكنت حين قدمت القاهرة عام سبع وخمسين، وسمعت ذكر هذه المنقبة، حتى قال بعض الإخوان : إن السيد البكرى شيخه، قال : وأنا من أهل عصره٠

فأنكرت ذلك فى نفسى، ثم نمت فرأيت كأن الساعة قامت، وحشر الناس إلى كثيب مرتفع جدًا، وتجلى الرب سبحانه وتعالى للحساب٠
وإذا أستاذى هو واقف، وعلى رأسه التاج، وعليه حلة حضراء رأيتها عليه فى اليقظة٠

ورأيت شيخه السيد البكرى خلف ظهره، وخلفه جماعة الخاصة به، وكأنه ينتظر شفاعته فيه وفيهم، فجئت مسرعاً إليه، وقبلت يديه، فقال لى : انظر جماعتنا وأهل عصرنا، وأت بهم، وصفهم خلف ظهرى صفًا واحدًا٠

فنزلت إلى دهليز طويل، ووقفت على بابه فرأيت رجلًا من خلف الشيخ، فقلت له :
إن الشيخ قال انظر جماعتنا وأهل عصرنا وأت بهم، فلعلك أن تساعدنى على ذلك٠
فأوقفته بالباب، وكل ما مر على طائفة أخذتهم، وأطلعتهم إلى أعلى الكثيب، وأوقفتهم خلف الشيخ٠

فلا أزال كذلك حتى لم يبق أحد، فجئت إليه مسرعًا وأنا فى خوف ووجل٠
فقال لى : فعلت كما أمرت، فأشرت أن نعم، وصرت أبكى من هيبة ذلك الموقف وخطره٠
فقال لى : ما بالك تبكى، ثم ضمنى إلى صدره، وسترنى بحلته الخضراء٠
وقال : لا تخف ولا تحزن، إنا ندخل من هذا الباب، وأشار إلى باب عليه ستر أخضر٠
فنظرت وإذا بحذائه باب عليه ستر أحمر، أى : فكان الذى عليه سترًا أخضر باب الجنة، والآخر باب النار٠

وحدثنى بعض المحبين أهل الصدق والصلاح :
أن بعض الصالحين رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، ومعه أصحابه فى جمع عظيم، وموكب كريم، يؤمهم القطب سيدى أحمد البدوى عمت بركاته الوجود، وكان بيده محجن كأنه منشد الحضرة، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا إلى خيمة أستاذى٠

وكانت الرؤية فى مولد السيد البدوى بطندتا، فجلس النبى - صلى الله عليه وسلم - ومن معه فيها، ووقف السيد البدوى -رضى الله عنه- متوكأً على محجته فى باب الخيمة٠
ثم قال : يا سيدى يا رسول الله أكرم الحفناوى بكرامة٠
فقال للكاتب فى الحضرة : اكتب صكاك ومراسيم لجماعته وأتباعه :
أن جميع حوائجهم مقضية٠
فقال له يا سيدى يا رسول الله : هذا لا يكفى٠
فقال : اكتب أن كل من حضر هذا المولد كرامة لأجله يموت على الإسلام٠
فقال : يا سيدى زده٠
فقال : اكتب أن كل من عاهده أو تبعه من الأنام يموت على الإسلام، وينجوا من نار السعير يوم الزحام كرامة للحفناوى٠
ثم ساروا٠
فانظر إلى خطر سر هذه الرؤيا، وعظم فضل هذه المنقبة٠

وقد نظمتها فى سلك منظومتى " الحجج القاهرة لمنكرى فضل مصر والقاهرة "، لأجل أن يسهل حفظها بعد أن ذكرته، وذكرت له هذه المزينة فيها، فقلت مشيرًا إليها :

والسيد البكرى فى المزية * ترجمة فى الرحلة المصرية
وناقلًا عن الولى المشهور * بأحمد البنا عظيم النور
بأنه رأى النبى فى نومه * رؤية حق لم تكن كحلم
أخبره عن شيخه الحفناوى * والسيد المرشد كل غاوى
بأنه يشفع فى القيامة * فى أهل عصره بلا ملامة
وقد رأيت هذه الرؤيا أنا * ذكرتها فى رحلتى بلا عنا
وبعض أهل الله قد رآها * وقد نظمها كما تراها
حدثنى بعض المحبين الأولى * حازوا بحسن الصدق أنواع العلا
عن ثقة علامة إمام * يقول قد رأيت فى منامى
المصطفى بالآل بالأصحاب * وجملة الأخيار والأقطاب
يؤمهم ذو المدد الربانى * البدوى واضح البرهان
بيده محجن أنس فايق * يوفى إلى علياه بالموافق
حتى أتوا لخيمة الأستاذ * حفنيا ذى السر والملألأ
فجلسوا على بساط عنده * والبدوى واقفًا بالمنشة
متوكأ على عصاته التى * ما خاب من أمسكها فى أزمة
وقائلًا أيها المختار * ومن به قد نارت الأمصار
أكرم لنا الحفنى هنا كرامة * واعطه يا صاحب العلامة
قال له اكتب مراسم الدول * لأهله وصحبه مع الخول
مضمونها حاجاتهم أن تقضى * وعنهم رب العباد يرضى
قال له : زده فهذا لا يكفى * فقال : اكتب غير هذا الحرف
بأن كل حاضر للمولد * ينجو إذ ابن حر نار فى غد
فقاله له زده يا أجل الكرما * ومن رقى فى ليلة إلى السما
فقال : اكتب أن كل تابع * له لقد حباه خير شافع
وأنهم موتى على الإسلام * وكل من يهوى على الدوام
وهذه كرامة للحفنى تحفظ * فى باطن الحجا والجفن
فما له فى عصره من ثانى * كلا ولا من حاسد أو شانى
من عالم الذر ومن قديم * قد خص بالإفضال والتكريم

قلت : وحدثنى بعض المحبين بالأمس، قال :
كان عندى فى يوم ضيق نفس، ومعى صادع برأسى لم يبرح، فلقينى بعض الإخوان النصح، فقال لى : يا فلان والله العظيم لتموتن على الإسلام.
فقلت له : خسئت لا تقل مثل هذا الكلام فإن هذا مما استأثر الله بعلمه، وحجبنا عن معرفته وفهمه.
فقال : أما أخذ عليك السيد البكرى العهد ؟
قلت : نعم.
فقال : كل من أخذ عهد هذه الطريقة، وما تعلثم لا بد وأن يموت على كلمتى الشهادة، ويختم له بخاتمة السعادة.

قال : فأشغلنى كلامه وبعد عنى مرامه، فنمت تلك الليلة فرأيت فى النوم مسجدًا عظيمًا قد أبان نورًا جسيمًا.
فقلت لبوابه : من فى هذا المسجد الذى نوره متوقد ؟
قال : فيه صاحب الطريق الشيخ الحفناوى فى ركن المسجد وعليه ثياب بيض، قد زج بالأنوار حتى يكاد كل من نظر إليه يفيض.
قال : ولم أكن رأيته قبل ذلك، ولكن كما رأيته بعد رأيته هناك.
ثم جئت وقبلت يده وبسط يدى، فمسح رأسى بيده وعينى وقال :
أبشر أنك تموت على الإسلام، وهكذا جميع أتباعنا وطول الدوام.

قال : فانتبهت فوجدت جميع ما كان برأسى من الصداع ووجع العين قد زال، والحمد لله على نعمه، وعلى كل حال.

قلت : اذكرتنى رؤيا الصكاك والمراسيم أوراق يكتبونها الأمراء لمن أرادوا أن يحسنوا إليه، فيها إغداق عليه، رؤيا رآها بعض المريدين من أتابع أستاذى، وقد كتبها بخطه مداد، وافتتحها بخطبة، وهذه صورتها :

حمدًا لمن حكم نظام الوجود، وأقام دعائمه إلى اليوم الموعود، وبشر فوائح وروائح العلمين تعطر أنفاس الكون، ببث أسرار هى عند أهلها نقطة صون، أكنَّ منهم فى سراقات الضمائر ما لا يمكن التعبير عنه بظواهر وضمائر، وجعلهم للفضل نقطة دائرة، عليها رحى الأكوان دائرة، وعرشًا وفرشًا لتدليه وتجليه، وقلم إجمال وتفضيل أسراره الغيبيبة، ولوح تدليه، وأرشفهم سلاف فيوضاته فى جامات التحبير، من دنان حافات نفحات فيضه القدير، وحباهم من عطايا الغيب الإلهى، وخبايا السر الزاهى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من إمدادات رفع بها الحجاب، ونشر بها ألوية البشر.
شعر :

قوم إذا جن الظلام * قاموا هنالك سجدًا وقيامًا
وأمدهم فى كل زمن * بمن هو جامع فارق غارف
من دنان الأول وفى * بحار الثانى غارق.

وبعد، فيقول العبد الفقير العاجز الحقير عمر البابلى - غفر الله له ما جناه من ذنب وتقصير - :
إنى لما أخذت طريق السادة الخلوتية على بحرها الطائى أستاذى الحفناوى جعله الله فى أعلى عليين، وغفر لى ببركته جميع المساوئ٠

واشتغلت بالاسم الأول، رأيت مبشرة نبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم - فى البكرة والعشية، وهى :
إنى رأيته - صلى الله عليه وسلم - فى محل أخضر زاهى، وأستاذى الحفناوى مع بعض تلاميذه جالسين حلقًا حلقًا، وهو - صلى الله عليه وسلم - مقبل على الجميع، وأستاذى يقعد تارة، ويقف أخرى، ويكتب مكاتب عند الحلق، ويقدمها له - صلى الله عليه وسلم - يختمها، ويرسلها الأستاذ إلى بعض قرى الريف٠

وكنت مرادى أزوره - صلى الله عليه وسلم - والحياء غالب علىّ، فجئته - صلى الله عليه وسلم - من جهة يساره، فقال أحد الجماعة : يا رسول الله عمر قصده الزيارة٠
فالتفت إلىّ ووضع يده الشريفة فى يدى فأخذنى الحياء، ولم أنظر وجهه، فصليت عليه وسلمت، ثم ناولنى يده ثانيًا، فقبضت عليها بيدى، وقلت :
اللهم صل وسلم على سيدى رسول الله٠
ثم سألته عن أكل الفجل، فقال : يجوز٠
وقال لى : اقرأ الأسماء وأنت ملاحظ، فأُلهمت أن الذكر بمعناه، فأشار إلى : أن نعم٠ اه

ورأى بعض أهل الصدق فى مولد السيد البدوى رؤيا هذه صورتها ، ومن خطه نقلتها :

أما بعد يا سيدى، فقد حصل لى إنى نمت يومًا من الأيام، ولم أدر أنائم أنا أم يقظان٠
فرأيت أن القيامة قد قامت، وانتشر الناس فى المحشر، وأتت كل أمة بإمامها، وأتيتم أنتم إمامنا، وجميع المريدين يقفونكم إلى الموقف٠

فنشرت الدواوين، ونصبت الموازين بالنداء من العلى العظيم إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - :
يا محمد مر محمد الحفنى يزن أعمال أتباعه، فتوسلتم بالنبى - صلى الله عليه وسلم -، وطلبتم أن توزن أعمالكم وأعمال الأتباع جملة لا تفصيلًا، فجاء الإذن على وفق ما طلبتم، فوضعت حسناتكم وحسنات الأتباع فى كفة الميزان، والسيئات فى الكفة الأخرى، فرجحت الحسنات على السيئات٠

ثم أمر بكم إلى الصراط، فأتيتم وصعدتم أعلى موضع فيه، فوقفتم عليه، والنبى - صلى الله عليه وسلم - بإزائكم، وصرتم تأخذون باليد اليمنى من المريدين، وتسلكون باليد اليسرى إلى آخر الصراط حتى لم يبق أحد٠

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : هل بقى أحد من أتباعكم ؟٠
فقلتم : بقى الأحباب، فأتاه النداء من العلا :
يا محمد يا محمد ألحق به أهل عصره فقد أكرمناه بهم، وهو مكرم بانتسابه لك، واتباع ما أرسلت به، وأم به إلى أن يدخل الجنة هو ومن تبعه من الناس أجمعين، ادخلوها بسلام آمنين، بفضلى وكرمى، فإنى لا أضيع أجر المحسنين٠ اه

ومن خط الأخ الصالح، والعمدة الراجح العالم العلامة والقدوة الفهامة، فريد الزمان، ومحقق العصر والأوان، شيخ الإسلام، وحامل لوائه، وتر فلك الفضل، وكوكب سحابه الشيخ عبد الكريم المسيرى الشهير بالزيات، حفظ الله به بيضة الإسلام من الآفات٠

عقب هذا الرؤيا ما نصه :
رأى الشيخ أحمد بشر قبل وفاته - رحمه الله تعالى - الأستاذ السيد البكرى، وقال له :
سررنا بالرؤيا التى رؤيت للشيخ الحفناوى حيث وزنت أعماله، وأعمال الأتباع مرة واحدة٠

والحال أنه لم يكن عند الشيخ أحمد المذكور علم بما وقع فى الرؤيا السابقة٠
فهذا مما يدل دلالة ظاهرة على صدق تلك الرؤيا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أتباعه فى الدنيا والآخرة آمين٠

قلت هذه الرؤيا صريحة فى أنه يشفع فى أهل عصره، وأن كل مدد يصل إلى أهل هذا العصر بواسطته٠
وقد رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - مرة فى النوم، معى ثلاثة من أصحابى واقفون أمام حجرته٠
فبكيت، وقلت : يا سيدى يا رسول الله مرادنا براءة من النار٠
فأخرج رأسه الشريفة من الشباك، وقال : لكم براءة من النار، لكن واسطتنا فى ذلك الشيخ الحفناوى٠

فقلت لأصحابى : توجهوا بنا لندرك الشيخ قبل أن يطلع إلى حريمه، تسمرنا فتخلف أحدنا٠
فقلت له : يا فلان لم تخلفت ؟ فقال : كنست هذا القبر، وأزلت ما حوله من الأوساخ، ثم سرنا حتى أتينا إلى مقعد الشيخ، فوقفت ووقف أصحابى كل خلف الآخر، وكان الشيخ جالسًا وبيده يكوز يملأ منه قهوى، وعنده رجل رأيته فى أهل مدينة النبى - صلى الله عليه وسلم - أعرفهما، وهو يوبخ الرجل من جهة ابنه٠

فقلت له : يا سيدى إنا توجهنا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم -، وسألناه براءة من النار٠
فقال لنا : نعم لكن واسطتنا فى ذلك الشيخ الحفناوى٠

فحضر النبى - صلى الله عليه وسلم - عندنا، وقال له :
خذ عليهم عهد البراءة فمد الشيخ يده وبايعنى، ثم بايعت من ورائى من أصحابى، وهو بايع من وراه، فقرأ النبى - صلى الله عليه وسلم - :
{ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
ثم أشار إلىَّ، وقال : سلمان منا آل البيت، ثم ذكر قصة قتل (كلمة غير واضحة)٠
ثم انتبهت، وأخبرت بها أستاذى الشيخ٠
قلت : فلم تمض إلا ثمانية أيام من الرؤيا، ومات صاحبنا الذى تخلف لكنس القبر فنسأل الله تعالى تحقيق ذلك٠

ومن أبهى المبشرات رؤيا شريفة رأيتها يوم الثلاثاء بعد صلاة الصبح، وأنا جالس بعد صلاة الصبح، وأنا جالس بين النائم واليقظان فى فهوانية، وكنت ناويًا ذلك اليوم إلي زيارة ثغر دمياط فى نصف شعبان :

وذلك أنى رأيت كأنى فى قاعة عظيمة مرصعة بالرخام الأبيض والأسود والأحمر، مفروشة بفرش بطائنها من استبرق، وفيها أسطوانة عن يمين الداخل لها، وأستاذى الحفناوى فوقها، وتجاهها أسطوانة أخرى.
وفوقها النبى - صلى الله عليه وسلم -، ومعه الصديق، وجمع من أصحابه، وواقف بين أيديهم الشيخ البكرى الخليفة بالقاهرة، والشيخ عبد الله الشبراوى، وبين يدى أستاذى عود وعنبر مصفوفة هكذا، وقد عبقت الأرجاء بالشذا.

فانتقل الصديق - رضى الله عنه - ، ومعه الشيخ البكرى من أسطوانته إلى الأسطوانة الأخرى التى فيها أستاذى، وبيده فروة بيضاء خضراء أظنها الياقوت، وتاج له أربعة قرون صفار من الذهب الوهاج، فألبسهما أستاذى ثم قال :
هذه خلعت الصديقية، وهذا تاج المرتبة العلية.

ثم أخذاه من تحت ذراعيه، وأجلساه فى شباك من نحاس، فأقبل عليه الناس من كل فج يقبلون يده، وأنا واقف أروح عليه بمروحة، وحوله أناس كجماعة مواكب السلطان، وحصل ضجيج عظيم، ورفعت الأيدى والأصوات بالدعاء، وكأنها ساعة الإجابة.
حتى رأيت الرجل يقفز عن الأرض نحو ذراع وهو يدعو ويبتهل.

ثم خرجت إلى حجرة خلف هذا المكان، فرأيت فيها أقوامًا على خيل مسومة يتسابقون فى حومة الميدان، فضرب أحدهم آخر بسلاح معه فقتله، فانتبهت.

فرأيت أستاذى جالسًا فى مقعده، فقمت وقبلت يديه، وأخبرته بالرؤيا، فسرَّ ودعا لى بدعوات، فأظن والله أعلم أن الشيخ تقطب فى ذلك اليوم، وذلك عام سبع وستين ومائة وألف.

والحاصل :
أن المبشرات النبوية بهذه المزية وغيرها لا تدخل تحت حصر، وقد أشرت لما فيه الكفاية منها، لمن سلم من الرعونات، واستعمل الإنصاف فى جميع الأوقات، وعلى المنفرد بالتدبير التكلان، وهو فى كل ما أروم المستعان.

الفصل السادس : فى الخوارق التى أجراها الله على يديه٠

اعلم أن كرامات الأولياء ثابتة لا ينكرها إلا جاحد أو منافق، فى الحياة الدنيا بما فيه البرزخ، خلافًا لمن شذ وابتدع، وفى الآخرة والكتاب والسنة والإجماع مؤيدات لأقوالهم وأفعالهم وكراماتهم٠
واعلم : أنها غالبًا تجرى على أيديهم من غير قصد لها٠

قال بعضهم : لما سبقنا أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - برؤيته حيًّا، وثبت الله أقدامهم، وقوى إيمانهم بمعجزاته، جعل الله لنا كرامات مكان تلك المعجزات، إشارة إلى بقاء (كلمة غير واضحة) النبوة إلى يوم القيامة٠

ولذلك قال البوصيرى -رحمه الله- فى همزيته :
لم تخف بعدك الضلال وفينا * وارثوا نور هديك العلماء
والكرامات منهم معجزات * حازها من نالك الأولياء

قال الشافعى - رضى الله عنه - :
إن لم تكن الفقهاء أولياء فليس لله ولى٠

قلت : ومن كرامات أستاذى : الكشف الصريح الذى لم يتخلف قط، ما أضمرت فى نفسى شيئًا يومًا، واجتمعت به إلا سمعته فى لفظه، أو فعلت أمرًا إلا سمعت منه ما يدل عليه٠
فمن ذلك :
أنه قال لى يومًا بعد فراغ درسه : اسبقنى إلى البيت فتوجهت فلقينى بعض الأحباب، فقال لى : زر بنا المسجد الحسينى، فقلت له : أن الشيخ قال : اسبقنى إلى البيت٠
فقال : الشيخ يتأخر مدة بحيث أننا نزور ونرجع إلى البيت، وهو لم يأت٠

فامتثلت أمره، وتوجهنا إلى المشهد الحسينى، وزرناه، ثم رجعنا إلى بيت الشيخ، فوجدناه لم يأت كما أخبرنى الرجل، فحمدت الله وجلست هنية، وإذا أنه قد جاء، فحين وقع بصره علىَّ قال : أين كنت ؟ قلت : يا سيدى فلان، وأخبرته الخبر٠
فقال لى : إياك وتستعمل الكذب، إياك والكذب على الشيخ فمن يومها وأنا أخاف من مثل ذلك٠

ثم قال لى : تعالى، فصعد إلى خلوة جلوسه، وأغلق الباب، ثم تحرك حركة يسيرة، فرأيت كأن الخلوة مع اتساعها لا تسع غيره وغيرى، ورأيته صار كالطود العظيم، فرعبت منه، ووددت لو أن الأرض تبلعنى، وأجريت سحب الدموع٠

فقال لى : ما هذا الذى فى نفسك ؟ فلم أستطع أرد جوابًا٠
فقال : لم ارتكتب الأمر الفلانى، ولم يطلع على ذلك الذى أشار إليه أحد، وجعل يتكلم وأنا لا أقدر على الجواب٠
ثم أنطقنى الله، وقلت : يا سيدى توجه فى إزالته فإنى عاجز مسكين، فهش وعاد لهيئة جمال وأنس، وقال لى : أنا أتوجه، وخذ أنت فى أسباب الترك، فأشرت : أن نعم٠

ثم شابكنى، وذكر الحديث المسلسل بها من السادة الصوفية - رضى الله تعالى عنهم -٠
فنزلت من عنده، فوجدت الأمر الذى أشار إلىَّ به قد زال أى زوال٠

ومن ذلك : إنى كنت واقفًا خلفه، فقلت فى نفسى : لو وقفت أمامه لكنت مشاهدًا وجهه٠
فالتف إلى، وقال : ادخل فى المنظرة، واجلس تجاه الشباك وأنت لم تزل تشاهدنى٠

ومنه : إنى تذاكرت يومًا مع أخينا الشيخ حسن الدنيا، وفن الكيمياء، وتواعدنا بالاشتغال بذلك، ثم جئنا إلى الشيخ، وجلسنا عنده، فذكر الكيمياء والدنيا، إن هى هلوسات وخزعبيلات، ثم أنشد :
ولو قيل للمجنون ليلى ووصلها * تريد أم الدنيا وما فى زواياها
لقال غبار من تراب نعالها * أحب إلى قلبى وأشفى لبلواها٠

ومنه : أنه قال لى عن رجل من أهل الحجاز :
بلغنى أنه يتكلم فى أهل الله كابن العربى، أبشرك أن هذا الرجل يعطب فى سفره هذا٠
وكان مسافرًا إلى إسلامبول، فكان كما ذكر وعطب ذلك الرجل، وتعب حتى الأن٠

ومنه أنه قال لبعض أمراء مصر : ستتولى سنجق ثم أمير على الحج، فكان كما قاله٠

ومنه : إنى جلست يومًا عنده فقلت فى نفسى : مجد الله وعظمه، ثم قلت : وبماذا أمجده ؟
فقال مصرخًا : يا رباه، يا غوثاه، يا مجيب من دعاه٠

ومنه أن رجلًا من أهل الحجاز كان قد قدم من الديار الرومية، وكان له بالشيخ اجتماع، فاجتمع به وقال له : يا سيدى قصدى التوجه إلى الوطن، وأرى الوقت قد ضاق، ومرادى أدرك الحج٠
فقال له : على رأس أربعين يومًا تقبل إلى أهلك، وتدرك الحج٠
فسافر ثم عاد إلى مصر ثانية، فاجتمع بالشيخ، فقال له :
والله إنى ضبط المدة من يوم اجتماعي بكم إلى يوم دخولى على أهلى، فكانت أربعين يومًا حسبما أشرتم٠

ودخلت عليه يومًا فرأيته فى قبض عظيم، فسألته عن سببه، فقال :
إن الحجاج حصل لهم تعب وهم فى كرب، ولنا فيهم أحباب، وقلبنا عليهم، ولم يأت عنهم خبر قبل ذلك أبدًا٠
فحفظنا اليوم الذى ذكر فيه، وتأخر خبر الحجاج عن القاهرة، وضجت الناس، ثم جاء خبرهم بأنهم حصلت لهم مشقة فى العقبة من العرب، وسلكوا طريقًا غير طريقهم، فجاء الله بنا، فرأيناه اليوم الذى حفظناه٠

وامتحنه مرة شيخه السيد البكرى، فقال : كان الليلة فى نفسى أمر ما هو ؟
فأخبره به، فقال : أصبت، هذا الذى كان فى نفسى٠
ثم سأله فى مرة أخرى : فقال له يا سيدى ما فهمت٠
فقال له : كان فى نفسى كذا، فقال له : والله يا سيدى قد حاك فى صدرى هذا الذى أشرت إليه٠

قلت : تقدمت الإشارة إلى أن مثل هذه الأمور قد تجرى على أيديهم من غير قصد، ولذلك قال له فى المرة الثانية : ما فهمت٠ فتأمل٠

وكان يومًا ماشيًا مع بعض علماء عصره، فلقيهما رجل ممن يدعى الولاية٠
فقال لهما : أنتما تموتان فى هذه الجمعة٠
فقال له الشيخ على الفور : والله العظيم إنك كاذب٠
فقال له ذلك العالم : لا تقل هكذا يا سيدى محمد، ودخل عنده رعب من كلام ذلك الرجل٠
فقال له : فإذا مرت الجمعة، وكذا التى بعدها، ولم نمت، هل تعتقد فى هذا الرجل ؟
فقلت له : لا٠

فلما مضت تلك الجمعة، والتى بعدها توجه إلى ذلك العالم، وقال له : صدقت ما قلت لك، وإن هذا الرجل كاذب٠
فقال له : نعم، وما بقيت أعتقده٠
وسببه : أن الرجل المذكور مدع إنه ولى إلا أن فعله فعل الأشقياء، لا يصلى، ولا يصوم، ويتكلم بألفاظ تقضى بردته، هكذا أخبرنى غير واحد٠
قلت : وسلف أخباره عن أمثال هؤلاء أنهم ليسوا على شىء٠

ومن ذلك : إنى صليت وراه الصبح فى مقعده فانطفأ القنديل، فقام بعض من كان حاضرًا ليوقده فأشار إليه أن اجلس، وكان متشغلًا بورد الصلاة، فجاء سيدى فجعل ينظر إلى القنديل، ويطيل النظر فإذا هو قد توقد وأضاء أحسن إضاءة٠

فقلت فى نفسى : إذا ختم الصلاة يقول لى : انظر إلى هذه الكرامة لأنه يمزح معى بذلك كثيرًا٠
فلما أتم ورد الصلاة جلس، وقال لى على الفور : انظر إلى هذه الكرامة وهو يضحك، ويعد ذلك مزاحًا، فانظر إلى هذا البطل٠

وحدثنى الأوحد الأديب واللوذعى الألمعى، ومن على مثله الخناصر تعقد، الثقة الصادق، الشيخ على الميهى، قال :
حين قدم السيد عبد الرحمن العيدروس القاهرة وقع بيننا وبينه محبة، فكنت أتمنى أن يأتى إلى منزلنا للتشريف، واستحى أن أدعوه لذلك احتقارًا لنفسى٠
فأخبرت حضرة أستاذى الحفناوى بذلك، فقال لى :
إنه يأتى إليك، ويأكل ثريد الفقراء إن يكن له مراد فلا تدعوه، ولا تكلف نفسك٠
قال : فامتثلت كلام الشيخ، وتركته٠

فما شعرت عند إرادة سفرى إلى الحجاز إلا وقد أتى إلى البيت، وسأل عنى من غير أن أدعوه، فقلت له : يا سيدى أريد أعمل لكم ثريدًا فقط، وتأكلون منه، فقال : نعم٠
وجلس يتحدث معنا، فتذاكرنا أحوال أستاذنا الحفناوى٠

فقال لى : ألا أحدثك بأغرب أحوال الشيخ، وذلك أن ذكره فى مالطة بلاد النصارى، ووقعت حادثة٠
وذلك أن أسيرًا من المسلمين فى مالطة مر على المسجد فسمع الذكر ، فقال : طريقة من هذه ؟
فقيل له : طريقة الشيخ الحفناوى، فقال :
اللهم بحق هذا الشيخ عليك أن تطلقنى من الأسر إن يكن من أوليائك٠

ثم سار فلما كان الليل غلوه وسجنوه، فنام فرأى فى النوم رجلًا أتاه بفرس مُسَرَّج ملجم، فقال له : اركب، فأركبه ثم سار به حتى إلى شاطئ البحر، فأنزله فى سفينة مسافرة إلى اسكندرية٠
فوصلت السفينة البر، فنزل الأسير منها، فانتبه فوجد نفسه فى اسكندرية، وليس ثم غل ولا سلسلة ولا سجن٠
قلت : وقد وصل هذا الأسير إلى الشيخ، وأخبره بذلك٠

ووقع نظير ذلك لجماعة من صعيد مصر كان قد سجنهم ملتزمهم بمصر، وغلهم فى السلاسل، فجاء رجل من بلدهم من تلامذة الشيخ مستشفعًا فى إطلاقهم فلم يشفعه، فبقى متحيرًا، واستحيا أن يخبر الشيخ بذلك، ثم عزم على أن يخبره بالقلب دون اللسان٠

فجاء إليه وأضمر قصتهم فى نفسه، ورجى الشيخ فى خلاصهم، ثم توجه من عنده تلك الليلة، فلما أن ظهر الصباح جاء إلى بيت الشيخ، وجلس على دكة، ثم وإذا بجماعته الذين كانوا فى السجن يسلمون عليه من شباك القاعة٠

فالتفت إليهم مستغربًا، وقال لهم : من أطلقكم ؟ ومتى جئتم هنا ؟
قالوا : خلصنا الله ببركة الأستاذ الحفناوى، فقال : وكيف ذلك ؟
قالوا : إن لنا قصة عجيبة، وأحاديث غريبة٠
وذلك أننا اشتد بنا الكرب الليلة والأغلال فى أعناقنا، فاستغثنا بحضرة الشيخ، واستجرنا به٠

قال أحدهم : فأخذتنى سنة من النوم، فرأيت الأستاذ الحفناوى قد جاء إلينا٠
وقال : قوموا واخرجوا، فقلت له : وكيف المخرج يا سيدى ؟ فقال : اتبعونى٠
ثم فتحت عينى فرأيت الأغلال قد حطت عنا، ورأيت الشيخ خارجًا من باب السجن، فقمنا وقفونا أثره فلم نره٠

فخفنا أن يشعر بنا أحد من الحراس، فأخذنا معنا عصى ومضينا، فوجدنا باب البيت مفتوحًا، والخفراء جالسون بأعتابه، فخرجنا فلم يلتفت إلينا أحد منهم، ثم سرنا فلم نر أحد فى الطريق، والوقت مظلم حتى وصلنا إلى جامع المؤيد، فسمعنا المؤذن يؤذن الفجر فدخلنا المسجد وصلينا فيه الصبح، ثم جئنا إلى بيت الشيخ فوجدناه مفتوحًا فدخلنا إلى القاعة وجلسنا٠

وهذه قصتنا ونحن فى عجب :
أولًا : لفتح بيت الأمير، وتلك الساعة، وهذا أمر لا يوجد بمصر أبدًا إذ لا تفتح بيوتهم إلا مع شروق الشمس٠
وثانيا : لعدم تعرض الخفراء لنا٠
وثالثًا : وجود بيت الشيخ أيضًا مفتوحًا فى هذه الساعة٠

فقال لهم : لا عجب إن الذى وضع عنكم الأُصُر والأغلال، ورفع الحجاب، أسكت القوم، وسلك السبيل، وفتح الأبواب الشيخ الصالح الصوفى العالم الراجح الشيخ حسن أبو عبده العدوى، إنهم يرونه راكبًا فرسًا، وتارة فى المسجد، وتارة فى الميضة يتوضأ، ومتى استغاث به أحد أدركه٠

وأخبرنى أستاذى نفسه - رضى الله عنه - :
أنه متى نام على جوع غالبًا يرى فى نومه موائد قد مدت بين يديه فيأكل وينبسط، ثم يستيقظ فيجد أثر ذلك الأكل والشبع٠
قلت : لا يخفى أن هذا من الأطوار المحمدية المشار إليه بقوله - صلى الله عليه وسلم - :
« إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى »٠

ومن كراماته إنى كنت مارًا فى شارع القاهرة، وكان على كتفى شال كشميرى أحمر، فوقع منى ولم أشعر به، ثم جئت إلى الجامع الأزهر فأرسل الشيخ يدعونى إليه٠
فتوجهت فذكرت الشال فلم أجده، فقلت فى نفسى : إن يكن فيك بركة فهات الشال٠

فقال : يا سبحان الله وإلى الآن لم تؤمن بالكرامات، لكنه فى هذا الوقت تظهر البركة والكرامة لعلك أن تذعن٠
فقلت لأخ إلى جانبى سرًا : إن الشال قد وجد، فقال : وكيف ذلك ؟
قلت : وجدت فى قلبى حين قال الشيخ : لكن فى هذا الوقت تظهر البركة والكرامت إن الشال قد وجد، ولكن أكتم الأمر٠

ثم توجهت من عنده وجئت إلى الجامع الأزهر، فقيل لى إن فلانًا جاءك هنا ويذكر إن لك شالًا عنده، فتوجهت إلى ذلك الرجل فوجدت الشال عنده، وأخبرنى بقصة تحفة فى شأنه٠
ثم أخذته ودخلت على أستاذى، فقال لى : لقيت الشال ؟ قلت له : نعم٠

وقد وقعت من كتفى منشفة، فدورنا عليها فلم نجدهاه، فقال لى بعض الإخوان إنها ذهبت٠
قلت له : لا يمكن ذلك، وأنا عاهدت أستاذى على أن لا يذهب لى شىء، لأنه قال لى مرة : بلغنى أنك تترك حوائجك فى الخلوة فى سطح الجامع الأزهر، فأشرت : أن نعم، فقال : لا تفعل وانقل حوائجك منها فإن المكان غير مأمون٠

فقلت له : وإن كان كذلك لكن والله العظيم إن ذهب لى شىء منها ما أخذه إلا منك٠
فقال : ولم ؟ فقلت له : يقول الشاعر :
وعار على راعى الحما وهو فى الحما * إذا أضل فى البيداء عقال بعير٠
فضحك وإن يكن فيه بركة، وله سر طياته بها٠

وكان الوقت إذ ذاك بعد العشاء فلما لاح الصبح، وإذا برجل يقول لى : خذ منشفتك فإنى لقيتها مع واحد فى الجامع، وهو يوفها فحمدت الله.

قلت : وقع لى أعجب من ذلك ؛ وهو إنى نسيت ليلة فى مكان فى الجامع نعلى، ثم دورت عليه بعد ذلك فلم أجده، فقلت : فى نفسى كيف يضيع نعلى يا أستاذى، فلابد وأن تأتينى به.

ثم نمت تجاة رواق الترك، فرأيت وأنا نائم النبى - صلى الله عليه وسلم - فى جمع كبير فى وسط الجامع الأزهر، ثم رأيتهم أجلسوا الأستاذ على الكرسى الذي يوقدون عليه المصابيح فى الأزهر.
ثم أخذ الشيخ الشبراوى من يدا النبى - صلى الله عليه وسلم - فروة بيضاء على جوخة خضراء، فصعد بها على الكرسى، وألبسها أستاذى، ثم أخذ بيده وأفز له، فأسرع إليه العالم يقبلون يده.
فجئته وأخذت بأردان الفروة، وقلت له : لا تغتر بهذه الحالة، هات لى نعلى فإنه ذهب لى الليلة.

فقال لى : أمهلنى، قلت : لا سبيل إلى ذلك، فقال : اذهب بنا إلى القطب نذكر عنده قليلًا.
فذهبت معه حتى انتهينا إلى الجودرية بسويقة المؤيد، فجلس فى دكان، ثم وجلست معه، فرأيت فى الدكان رجلًا أسمر اللون طويل القامة عظيم الهامة، أعرف ذلك الرجل فى اليقظة بالجامع الأزهر.
فقال لى : هذا القطب فذكر الشيخ، وذكرنا معه، ثم لما ختم المجلس قلت له : اين نعلى ؟ فقال لى : عند الشيخ أحمد الشبراوى.

فاستيقظت فرأيت الشيخ أحمد المذكور واقفًا على رأسى يريد أن يوقظنى للصلاة.
فقلت له : أين نعلى الذى كان عنك، فقال : ومن أخبرك به، قلت : الذى أنا وأنت من حزبه.
فقال لى : أنا رأيته الليلة فى مكان كذا، فعرفت أنه نعلك، فحفظته عندى.
فانظر رعاك الله هذا النفس.

ومن كراماته :
أن مركبًا من مراكب البحر المالح انخرقت، فمكثوا يومًا وليلة يدورون حول المركب ليدركوا الحرق فلم يهتدوا عليه، ثم نام ملاح المركب، فرآه فى النوم وهو يقول له : إن الخرق فى الجهة الفلانية من المركب.
فانتبه الرجل فأخبر رئيس المركب بذلك، فنزلوا فوجدوه فى المكان الذى أشار إليه.

وانحسر الريح مرة عن المراكب، وكان بها بعض أتباعه، فنام فرآه فى النوم، وهو يقول له : إذا أصبحتم فسافروا على بركة الله فإن الريح يأتيكم.
فلما أصبح أخبر ربان المركب، فقال له : ما ثم ريح، فقال له : سافر على بركة الله ويأتى الريح، فساروا فأتاهم الله بريح طيبة وفق مرادهم.

ومن كراماته :
أن ظالمًا من حكام مصر بلغه أن عند بعض جماعة الشيخ خاتمًا فصه ثمين جدًا، فأرسل إليه يطلبه فما وسعه إلا إرساله إليه خوفًا منه، لكن قال للقواس المرسل به : مر على حضرة أستاذنا الحفناوى، وقل له إن فلانًا أرسلنى إلى تابعك فلان فى شأن خاتم عزيز عليه، وها هو قد أرسل به إليه٠

فمر به القواس، وكان جالسًا على المائدة، فقام وامتزج بجلال، وصار يقول :
ما كان يحتاج يا فلان، ويسمى ذلك الظالم ظلم فلان، ويكرر ذلك٠
ثم قال : نطلب من أهل الله أن يضيقوا عليه مصر ضيق الخاتم٠
فما لبث ذلك الظالم إلا قليلًا حتى أجلى من مصر، وضاقت عليه حتى لم يجد له من سبيل إلى أحد فيها، فما وسعه إلا الهروب فتولى الفرار، وتاه فى الفضاء والقفار٠

ودخل عليه مرة بعض الفقراء، فقال له : أخرج فلانًا الظالم من قلبك، واقرأ الفاتحة على ذلك، فقرؤا الفاتحة، فلم يلبث ذلك الظالم إلا أيامًا وقتل شر قتلة، ومزق كل ممزق٠

ومنها : أن النيل انحبس على الصعود فى بعض السنين، وحصل للناس كرب ومشقة شديدة، فدخل عليه بعض الفقراء، فقال له : يا سيدى الفاتحة على أن النيل يزيد الليلة٠
فقرأ الفاتحة فزاد تلك الليلة زيادة وافرة جبرت توقفه تلك المدة وأوفى٠

ومنها : إنى كنت مسافرًا بعد فى بحر النيل إلى زيارة السيد البدوى -رضى الله عنه- فجزنا فى أثناء الطريق بمركب قد وقفت على الرمل، وتعب أصحابها فى خلاصها٠
فقال لى ممازحًا : أن عقله يقول أحضر بركتك لخلاص هذه المركب٠
فقلت له : إن يكن ثم نافلة فهذا وقتها٠

فرفع يديه وهو يضحك، وقال : يا بركتى احضرى وخلصى المركب، فإذا بالمركب سيارة من غير معين ففرح أهلها٠
فقال : نظرت إلى بركتى ؟ فقلت له : أنما صادف القول خلاصها، وفى الأمثال كل صدفة خير من ميعاد٠

قلت : شاهدت من كراماته بعد هذه الواقعة، ونحن سائرون أمرًا عجيبًا، وذلك إنه كان يعترينى فى بعض الأحيان وجع جنب يبطل نصفى، وأنا قديم عهد به٠
فاعترانى آنذاك، فقلت فى نفسى مخاطبًا له : إن يكن فيك بركة فأزل هذا (كلمة غير واضحة) عنى بحيث لا يعود إلى أبدًا٠
فو الله ما هو إلا أضمرت ذلك، حتى زال ما كان بى، ولم أعرفه إلى الآن، والحمد لله تعالى٠

ومنها : وهو فى مولد السيد البدوى : أن رجلًا من الفقراء المرسمين المعقود لسانهم عن النطق، مكث ثمان عشرة سنة لا ينطق أصلا، أحضره أهله إليه وقبلوا يديه، ثم قالوا له :
مرادنا إنه ينطق٠
فقال لهم : هذا شيء لا يقدر عليه إلا الله تعالى٠
فقالوا له : لا بد وأن تتوجه إليه فينطق٠
فقال له : اذهب الليلة ونم فى مقام السيد البدوى - رضى الله عنه - فإذا لاح النهار فأت إلينا٠
فلما أصبح جاء إليه، وجلس بين يديه، فقال له : قل لا إله إلا الله٠
فقالها ثلاث مرات، وأنطقه الله ثم خرج من عنده معلنًا بها فى المولد٠

ومنها : أن بعض مريديه ابتلى بمرض أقعده فصار لا يقدر على القيام، فبعث إليه يدعوه قائلًا : أدركنى، فذهب إليه فلما دخل عليه قام على قدميه كأن لم يكن به مرض أصلًا٠

ومنها : إنى حين قدمت إلى القاهرة المرة الثانية، وكنت مسافرًا فى البحر، ولم تصل المراكب إلى السويس، لعدم الريح المريح، فنزلت منها وجئت مصر، فاجتمعت به ومكثنا أيامًا٠
قلت له : يا سيدى توجه بقلبك عسى أن تأتى ريح جنوب للمراكب لتصل إلى مقرها٠
فماطلنى أيامًا، فكررت عليه القول، فقال لى : الليلة تأتيك الجنوب، وتصل المراكب٠
فلما كر الليل هبت ريح جنوب داو كلام القلوب، ووصلت المراكب إلى مقرها٠
وقد اتفق الحساب، وأهل البحر الحذاق أن وجود تلك الريح فى ذلك الأوان خرق للعادة٠

ومنها : إنى كنت مسافرًا فى بحر النيل، فأشرقت علينا ذلك اليوم شمس شديدة الحرارة٠ فقلت له : اجلس لا تفعل فإننى انبسط من رؤية البحر هكذا، وإن يكن لأستاذنا سر فليحجب الله عنا الشمس بالسحاب٠
فو الله ما هو إلا أن فهت بذلك، حتى توارت الشمس بالحجاب، ووصلنا إلى بلدنا فوة٠

ونظير هذه : إنى كنت واقفًا تجاه أستاذى فى خلوته، فرأيت الشمس قد ظهرت على رأسه وهو يكتب، فقلت فى نفسى : أيتها الشمس إن يكن فى الأستاذ بركة فلتحتجبى عنه بالسحاب٠
فاحتجبت حالًا، فخفت أن يكون صادف ذلك قولى، فقلت لها : بل إن كان فيه سر فاظهرى وارجعى لما كنت، فظهرت الشمس، ثم عدت لما قلت ثلاث مرات٠

وكنت متوجهًا فى يوم كثير المطر إلى الأزهر، فقال لى بعض الإخوان : أين أنت ذاهب والمطر يسكب، قلت : إلى الأزهر، وإن يكن فى الأستاذ بركة يحجبه حتى أذهب وأرجع٠
فما هو إلا أن فهت بذلك، وانحبس حتى ذهبت ورجعت٠

وأقسمت مرة بحياته على ضبة خِلوتى بسطح الجامع الأزهر، وكنت نسيت مفتاحها فيها، وعالجت فتحها فتعسر، ففتحت٠

ونظير ذلك أيضًا : من مقام ولى بعد أن عالجت فتح ضبة مقامه، فلم يفتح حتى توسلنا بالأستاذ٠

وأخبرنى العلامة الثقة المولى الصوفى الصالح سيدى الشيخ محمد المنير الآتى ذكره :
أنه سافر من بلده إلى القاهرة لزيارة حضرة الشيخ، فصحبه بعض تلامذته، فوصل الشيخ وأقام عنده مدة، ثم لما أراد التوجه والرجوع إلى بلده ودعه، ونزل إلى بولاق فنسى حاجة له فى بيت الشيخ.
فأرسل ذلك التلميذ إليها، فلما دخل البيت رأى الأستاذ، فقال له : لم عدت ؟
قال : نسينا الحاجة الفلانية فجئت لأخذها.
فقال له : أفطر فإن فى الصيام عليك مشقة شديدة فى مثل هذا اليوم سيما وأنت مسافر، وكان متنفلًا بالصوم.
فلم يمتثل كلامه، وتوجه من عنده فلما كان فى أثناء الطريق، وجد رجلًا يبيع خيارًا فاشترى منه وصار يأكل وهو سائر ناسيًا الصوم، فرأى نفسه فى أرض فلاة مقفرة.

فقال : يا سبحان الله كأنى تهت، وما هذه الأرض ؟ وأين أنا وبولاق، ولم يزل سائرًا فلقى رجلًا فقال له : يا هذا أين طريق بولاق ؟ فقال له : وما بولاق ؟ قال له المدينة التى على شاطئ النيل، فقال له : أبك جنون، أنا لم أسمع ببولاق، ولا بنيل أبدًا.

فتركه ومضى مسافرًا فلقى آخر، فسأله كسؤال الأول، فقال له مثل قوله فى الجواب.
فتعب وحصلت له مشقة، ثم قال فى نفسه : يا ترى ما سبب هذا الحال ؟ فذكر مسألة أمر الشيخ له بالفطر وعدم إمتثاله.

فقال فى نفسه : يا سيدى أنا قد أذنبت فتداركنى يا حفنى، واعف عنى، ماذا يقول الشيخ المنير لأهلى إذا وصل إليهم ؟ وصار يبكى ويقول : لن أرجع إلى مخالفة قولك أبدًا بعد اليوم,فإذا هو يرى نفسه واقفًا على من اشترى منه الخيار، فلما وصل إلى بولاق، وسأله الشيخ المنير عن سبب تأخره أخبره الخبر.

وأخبرنى المذكور بمثل هذه أيضًا :
وهو أنه كان متوجهًا مع الشيخ أستاذى إلى مولد السيد البدوى - عمت بركاته الوجود - وكانت عليه عادة إذا وصل إلى قحافة قرية قريبة من طندتا بلدة السيد البدوى ينزل ماشيًا إلى مقام السيد، فلما وصلوا إليها ترك دابته ونزل على عادته.

فقال له الأستاذ : لم نزلت ؟ فقال : يا سيدى على عادة إذا وصلت إلى هنا أنزل ماشيًا إلى المقام، فقال له : لا يليق بمثلك ذلك، واركب وأنا أضمن لك من سيدى أحمد البدوى عدم المؤاخدة بذلك، وكل ما جاءك من اليوم فأنا الكفيل به.

فامتثل أمره، وركب حتى وصلوا إلى طندتا، قال لى الشيخ المنير المذكور :
وكان ذلك فى أوائل الطريق، ولم يكن عندنا سوى منشد للقوم، فكان لا يذوق مدة المولد النوم، فكَلْكَلِه، وشق عليه ذلك، فهرب من مجلس الذكر، واختبأ فى غرارة من غرائر العيش، فدورنا عليه فلم نجده.

فحصل له مرض شديد توجه به إلى بلده، واشتد به ذلك المرض، فرأى فى النوم سيدى أحمد البدوى ـ رضى الله عنه ـ قد أتاه بحربة تلمع كالنار، ومعه رجل آخر خلفه، أظنه قال تلميذه سيدى عبد العال٠
وأراد ضربه بها، فقال له من معه : لماذا يا سيدى تضربه ؟
فقال له : مرادى أقتله، ولا بد لأنه تكبر علينا فى مولدنا، وهرب من مجلس الذكر، واختبأ فى غرارة٠

فقال له : إن كان ولا بد فأنا أشترط عليه أن لا يفارق خدمة الفقراء فى المولد ؛ كالإنشاد، ومد السماط، ونحو ذلك، وأيضًا قد ضمن الشيخ الحفناوى للشيخ محمد المنير فى ترك عادته من مشيه إلينا من قحافة حافيًا، وأنا شفاعة الحفناوى وضمانته عندى مقبولة، فإن أمره من أمرنا، وحكمه من حكمنا، وأنا رض بكل ما يرضاه، فقد ألزمته أنه يمشى هذه المسافة بدل الشيخ المنير فى كل عام، فإن لم يفعل ذلك، وإلا قتلته٠

ثم انتبه، فأخبر الشيخ المنير بذلك، والحال أن ذلك المنشد لم يكن عنده علم بما وقع بين الشيخ والشيخ المنير من أمره بالركتوب وضمانته ذلك٠
فهذا مما يدل على صدق الرؤيا٠
قلت : ولم يزل ذلك الرجل يمشى تلك المسافة إلى الآن٠

ومن أعظم كرامات الشيخ التى هى كالشمس فى رابعة النهار، وكالسهم فى قلوب أهل الإنكار :
ما يحصل فى موالد السيد البدوى منه وله من الإمدادات، والأيادى، والكرمات٠
أخبرنى من أثق به من رجال الله : أن السيد البدوى لا يتجلى على أهل المولد بالإعتراف فى الإكرام، إلا إذا جاء الشيخ فإنه مفتاح بابه٠

قلت : فإن المولد الذى لم يحضره لا ينتظم شأنه، هكذا على لسان جميع الفقراء أرباب التمكين، ولا يخفى ازدحام الناس الخاص والعام على زيارته فى هذا المولد، كازدحامهم على المقام الأحمدى، وأن كل من زاره فى هذا المولد يجد فى قلبه مدد أو راحة٠

قلت : كنا فى بعض الموالد، فرأى بعض الصالحين فى النوم كأن الشيخ يقول ورد الستار من أوراد الطريق بعد صلاة الصبح، وحوله خلق كثيرون يستمعونه، والسيد البدوى ـ رضى الله عنه ـ جالس فوق مقامه، وقد خرج منه عمود من نور، واتصل بالأستاذ الحفناوى وهو فى الورد٠

فجعل الأستاذ يأخذ منه، ويفرق على الحاضرين، ولم يزل ذلك النور فى ازدياد وانتشار حتى انتصف النهار، وختم ورد الستار٠
فاتفق فى ذلك اليوم أن الأستاذ كان فى ورد الستار، وحصل فيه مدد كبير وحال شهير، واستمروا فيه حتى انتصف النهار٠

وكان نفقاته فى هذه الموالد وصدقاته، وإطعام الفقراء والمساكين، وما يحصل فيها من المدد المبين، فأشهر من نار على رأس علم، وأبين من صبح إذا انقشع الظلم٠

وأخبرنى الشيخ المنير المذكور - ضاعف الله لنا وله الأجور - :
أنه فى بعض السنين جاء إلى المولد الأحمدى كعادته، وكانت سنة قحط، فاجتمع عليه خلق كثيرون من الفقراء أكثر مما يعهد من قبل، ففكر فى كفاية هؤلاء القوم المؤن، وخشى أن يفرغ زادهم قبل انفضاض المولد، فجاء إلى الأستاذ وأخبره بذلك۰

فقال له : اذهب وابسط مائدتك على عادتك من غير نقص ولا زيادة فإذا بسطتها أخبرنى۰
فذهب وبسط بساط المائدة حتى تم الأمر۰
فجاء إلى الأستاذ، وأخبره بذلك، فقام وقعد فى أعلى السماط، وجعل الناس يجلسون طائفة بعيد طائفة حتى أكلوا وشبعوا جمعيًا، ولم يبق أحد، ولم يزل يفعل هكذا كل يوم من أيام المولد حتى انتهت المدة۰

فإذا الشيخ المنير - نفعنا الله به - يرى نفقته فاضت على العادة، وتوفر عليه منها نحو غرارين من العيش، فقال له : كن على هذه الحالة فى كل عام فإنه لا يحصل إلا الخير۰
قال الشيخ المنير : فو الله لم تزل هذه الزيارة تفيض عن تلك الموالد حتى الآن۰

ومن كراماته : إنى اجتمعت من أهل الهند مع ركن دولة أحمد أباد فى سياحة فى بعض منازل الحج، وكنت متوجهًا إلى القاهرة فى المراكب، اسمه السيد إسماعيل بن السيد شهاب۰
فحين رآنى سلم علىَّ وصرح باسمى، فعرفت إنه من العارفين، وهو يقول لى :
إنى رأيت سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول لى :
إن المركب ستغرق، وأراد (كلمة غير واضحة) ، ثم قال لى : وفيها واحد يقال له فلان من أولاد الشيخ الحفناوى۰
فقلت له : يا سيدى يا رسول الله إذًا هذا الشيخ صاحب حال، فكيف تغرق المركب وفيها واحد من أولاده ؟
فقال لى : أنها ستنجو وتصل بالسلامة۰

ثم تكلم هذا الرجل بكلام يبهر العقول، فرأيته من رجال الله الفحول، لا يفطر، ولا يتسحَّر إلا على لوزتين فقط، ولا يشرب الماء أصلًا، ورأيت معه حبوب يستعملها إذا عطش۰
وأخبرنى إنه شارد وحده فى تلك البلاد۰
ثم أفادنى بعض فوائد نافعة، ومن جملتها الدائرة المشتملة على اسم الشيخ، مع ما فيها كما سلف الإشارة إليها، وناهيك بهذه منقبة وكرامة۰

ثم أراد الله تعالى فى صبيحة تلك الليلة أن مركبنا غرقت، ثم خلصت ووصلت السويس بالسلامة، طبق ما أخبرنى به الرجل المذكور۰

ومنها : إنى حين دخلت السويس كان معى أشياء لبعض المحبين حملوا فيها رجاء إنقاذها فى أيدى المكاسين، فلما قاربت الدخول توجهت لأستاذى، وقرأت الفاتحة، وقلت :
يا سيدى علك أن تعمى على هؤلاء الظلمة الأمر۰
فو الله لقد جزنا عليهم فلم يسألنا أحد منهم، ولم يسألوا عما معنا۰

وكنا سائرين فى طريق الطور، فنزلنا فى أثناء ذلك للراحة، فوجدنا ثم من الترك جماعة، فبعثوا إلينا يأمرونا بالمسير معهم، فقلنا لهم : ولماذا ؟ فقالوا : لأن الطريق مخيفة، ونحن معنا أسلحة نحميكم بها من أهوال الطريق.
فقلنا لهم : نحن معنا سلاحنا، فقالوا : ما سلاحكم ؟ قلنا : أستاذنا الحفناوى، فضحكوا منا.
قلت : وأيم الله لا بد وأن نسير فى هذه الساعة، ونترككم هنا لننظر هل تنفعكم أسلحتكم أم لا.
فسرنا وتركناهم حتى وصلنا إلى السويس بالسلامة، ولم نُصب بشىء، ثم أراد الله أن أولائك الترك يعطبون، وأُخذت حوائجهم، ومنهم من مات، ومنهم من سلم مع العطب.

ومن كراماته :
أنه ما تغير على أحد فلقى خيرًا بعد، بل إما أن يسلب حاله أو تقطع أوصاله.
فمن ذلك إنه تغير على رجل فجن بعد أن كان فى أعلى درجات الكمال، وتغير على آخر فأسر بمالطة، وضرب رجلًا بيده بسبب واحد من جماعته أساء الأدب فى حقه، وطرده فآل الأمر إلى أن قتل، ولم يعلم قاتله، وتغير على آخر فابتلى بالجذام.

ومن كراماته : أنه أسلم على يديه غير واحد من النصارى حين سمعوا ذكر طريقته.
ومن كراماته الباهرة : تسليكه الفقراء وإرشادهم إلى الطريق، والتخلق بأخلاقهم المطهرة التى منها الذل والتواضع والخمول.
وقد عدَّ الشعرانى - رضى الله عنه - فى " المنن " تسليكه فقيه واحد.

ومن كراماته : إنه أذل الله له أمراء عصره من الجبابرة المتمردين حتى إذا لقيه الواحد منهم يعرق جبينه، ويخلع كبرياؤه خلف ظهره، ويذهل شدة الذهول.

قلت : أشار إلى هذا المحقق الشعرانى فى العهود الصغرى، إن الأمير إذا جاء بيت الفقراء خلع كبرياؤه على باب البيت أو الزاوية، ولا يدخل له إلا بصفة الذل.

ومن كراماته : إقبال أهل عصره عليه بالحب والاعتقاد الخاص منهم، والعام من غير إنكار ولا ملام.

ومن كراماته : وهو خلق عجيب، وقد مر ذكره :
أن كل من اجتمع به يتيقن إنه أعز عليه من كل الناس.
قلت : بل أعجب من ذلك أن كل من رآه أولًا ثم اجتمع به ثانيًا تمرغ فى حبه، واعتقاده فيه حتى كأنه لم يره إلا فى تلك المرة، وهكذا فى كل اجتماع.

ووالله العظيم يقع لى مرات أنى أراه وأمعن النظر فيه كى أعرفه فأحفظ ذلك، ثم أراه مرة أخرى فأجد فى نفسى كأنى لم أره أصلًا، وهكذا ..

بل وقع إنى صليت وراءه العشاء الأخيرة ليلة، فرأيته حالة الصلاة فى هيبة لم أره عليها قط من ضخامة بدنه، وعظم هامته.
ثم اتفق أنه دخل خلوته الخاصة به بعد الصلاة، ووعك فلبيته سعيًا واستأذنت فدخلت عليه، فوجدته فى هيئة غير الهيئة التى رأيته عليها حالة الصلاة فتوقفت متأملًا متعجبًا متحيرًا.

فقال : مالك تتعجب ؟ قلت له : رأيت أمرًا عجيبًا، قال : وما هو ؟ قلت له : أنت الآن ليس الذى صلى بنا العشاء، فضحك وقال : ولم ذلك ؟ قلت له : رأيتك فى هيئة والآن فى هيئة أخرى، والله العظيم لا أشك فى ذلك.
فقال لى : لا سبيل إلى ذلك، وأخذ يمزح معى كعادته فى ذلك، ويسألنى فأكرر عليه القول..
ثم اعلم : إنى لو أردت استيفاء أحواله، ومناقبه لفاتنى الشيب، ولم أفز بأرب، وإنما فيما ذكرته تذكار واطمئنان، وهو على باقى صفاته الجميلة عنوان، إذ المواهب الربانية، والفتوحات السبحانية لا تدخل تحت حصر من يخوض اللجج، فضلًا عمن هو مثلى قصير الحجج.

ومعلوم أن بعض الأخلاق ليس من الممكن حصره، ولا من الجايز نشره.
ولذا قال رئيس المحققين السيد البكرى فى كتابه " الدر الفائق فى الصلاة على أشرف الخلائق " فى حرف الراء : وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد الذى ما حوت بعض صفاته الأسفار.

وأجاب عما فيه من إيراد بما أشرنا إليه، والله الهادى للصواب، وإليه المرجع والمآب، وقد انتهى ما أردنا فى هذا الباب الذى هو بقية الأبواب لباب، وعدة فصوله رابع مفصوله، ولنشرع فيما بقى لعله به إلى (كلمة غير واضحة) القبول نرتقى.

الباب الثانى : فى سلوكه فى طريقة السادة الخلوتية، وتسليكه، وبيان خلفائه، والآخذين عنه، وفيه فصول٠

الفصل الأول : فى أخذه لعهد هذه الطريقة، وكيفية سلوكه٠

اعلم وفقنى الله وإياك أن هذا الطريق ثمرة كل طريق، ونتيجة أهل التحقق والتحقيق، ونسبتهم إلى سيدى محمد الخلوتى أحد أهل السلسلة، وسيأتى ذكره٠

وتاره يدعون بالقره باشيه نسبة إلى سيدى على أفندى قره باش أحد رجالها أيضًا، وهذا هو الاسم الخاص المميز لهم عن غيرهم من الخلوتية٠
ولذلك قال السيد البكرى فى الألفية :
والخلوتية الكرام فرق * قد نهجوا نهج الجنيد فرقوا
ومنهم فرقتنا العلية * من قد دعوا بالقره باشيه

قلت : وهى طريقة مؤيدة بالشريعة الغراء والحنفية السمحاء، ليس فها تكليف بما لا يطاق، بل حث على مكارم الأخلاق٠
وإنما كانت خير الطرق : لأن ذكرها الخاص بها " لا إله إلا الله "، وهى أفضل ما يقول العبد بنص قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى ٠٠ الحديث »٠

أخبرنى العالم العلامة، وفى وجوده على كل خير علامة، الحبر الفهامة، العارف الولى الصوفى من صفا فصوفى، نزيل مكة المشرفة، ومن على حبه القلوب منعكفة، سيدى الشيخ أحمد الأشبولى فسح الله فى مدته، وأفاض على العالم من بركته :
أن الشيخ الخليفى أحد أشياخ أستاذنا المتقدم ذكره قال :
الذى يعيش بعد الثلاثين ينظر الشيخ محمد الحفناوى٠
ثم توفى الشيخ الخليفى عقب ذلك، وكان عام أربع وعشرين أو قال ست وعشرين٠

قلت : ثم سألت أستاذنا عن ذلك، فأخبرنى أن سبب قول الشيخ الخليفى ذلك :
أن رجل كان معه فى الحمام يقال له الشيخ محمد الطبلاوى، قال له : يا سيدى لما أراك تقدم الشيخ الحفناوى على جماعتك ؟ وفيهم من هو أسن منه وأفضل، وتقول الذى يعيش ٠٠ وذكر ما تقدم٠

قلت : هذا كشف صريح، لأنه أشار إلى سلوك الشيخ فى هذه الطريقة، وظهور شأنه كذلك، لأنه بعد الثلاثين اشتغل بالطريق، فأخذ يتخلق بأخلاق القوم، ويسلك مسالكهم، وهو مع ذلك مجبول على مكارم الأخلاق، لما علمت مما مر٠

فأول اشتغاله على رجل يقال له : الشيخ أحمد الشاذلى المغربى أخذ عنه بعض أحزاب والأوراد، ثم قدم السيد البكرى من الشام عام ثلاث وثلاثين ومائة وألف، فكان بمصر رجل من تلامذة السيد، وهو السيد عبد الله السليقنى٠

فأراد الشيخ الاجتماع بالسيد فسأل السيد عبد الله المذكور أن يجمعه به فتوجه معه إليه، فسلم عليه ثم جلس، فجعل السيد ينظر إليه، وهو كذلك ينظر إليه، ومال كل بقلبه جهة الآخر، وحصل بين القلبين ارتباط وتعارف، على ما أشير إلى ذلك بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الأرواحُ جنودٌ مجنَّدَةٌ ما تعارفَ منها ائتلَفَ وما تناكَرَ منها اختلَفَ »٠

ثم إنه قام وجلس بين يدى مولانا السيد البكرى بعد طلبه للانتظام فى سلك طريقه، فأخذ عليه العهد حالًا، وكانت عادة السيد إذا أراد أحد الأخذ عنه أمره بالاستخارة قبل ذلك، وهو لم يأمره بها ففيه إشارة إلى شدة الارتباط٠

وحين أخذ عليه، قيل لبعض علماء عصره، وهو الشيخ العلامة الحبر البحر الفهامة الشيخ مصطفى العزيز إن الشيخ الحفناوى قد أخذ طريق الفقراء، ومراده يذكر الله تعالى، ويشتغل عن العلم، يريدون بذلك لومه على ما وقع منه٠
فقال لهم الشيخ الحفناوى :
نطفة مطهرة من الأصل لا يحتاج إلى ذكر، ولا تذكير، وإنما يحتاج ذلك أمثالنا أهل الأدران٠

قلت : أشار إلى ذلك سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى " المنن " : فمن ح اشتغل بالذكر والمراقبة والفكر والمجاهدة، ورأى عقب دخوله فى هذا الميدان وهو نائم السيد البكرى جالسًا عند رأسه، والشيخ أحمد الشاذلى جانبه، والشيخ أحمد المذكور يعاتبه على دخوله فى الطريق، وعتب السيد البكرى٠

فقال له السيد : هل لك معه حاجة ؟ قال : نعم لى معه أمانة، وإذا بجريدة خضراء بيد السيد، فقال له : هذه أمانتك، قال : نعم، فكسرها نصفين، ورماها للشاذلى قائلًا :
خذ أمانتك، ثم انتبه، فأخبر بها السيد، فقال له : هو اتصال بنا، وانفصال عنه٠

قلت : وهذه هى النسبة الباطنية التى أشرنا إليها فى فضل نسبه، ثم التى صار بها سلمان الفارسى وصهيب من أهل البيت٠

قال الفارضى الأديب ـ رضى الله تعالى عنه ـ فى اليائية :
نسب أقرب فى شرع الهوى * بيننا من نسب من أبوى

وقال فى التائية : على لسان الصادق ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
وإنى وإن كنت ابن آدم صورة * فلى معنى شاهد بأبوتى

هامش المخطوط :
سببه أن العارف ابن الفارض أخذته سنة المنام، فرأى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فجعل ابن الفارض يفتخر بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقرابته له، من كونه من ذرية فاطمة السعدية التى أرضعت الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهى لها على ابن الفارض ولادة لكونه تسلسل من نسلها٠

فأشار إليه النبى - صلى الله عليه وسلم - بما معناه : أن إقبالى عليك، وتوددى إليك باشغال قلبك وتعلقك بى، وهذا أقرب قرابة عندى.
فازداد ابن الفارض سرورًا، وأنشد ذلك.

فإن آدم أب له من حيث النسبة الظاهرة، وهو أب من حديث النسبة الباطنية، لأنه نائب عنه فى الإرسال، ومتنبأ بعده فى الأزل، ولم يستمد من الحضرة العلية إلا بواسطته، ولذلك لما توسل به قبلت توبته، وزادت محبته، ولم يجعل مهر سوى الصلاة والسلام عليه، كما ورد ذلك كله.
وهو فى المعلوم ضرورة، فظهر بهذا أن هذه النسبة أعظم من تلك لترتب الثمرة عليها.

ثم سار فى طريق القوم أتم سير، حتى لقنه الشيخ العارف أستاذه السيد الصديقى الاسم الأول، والثانى، والثالث، ومن حين أخذ عليه لم يقع منه فى حق الشيخ، إلا كمال الأدب والصدق التام، وهو الذى قدمه وبه ساد أهل عصره.

فمن ذلك : إنه كان لا يتكلم فى مجلسه أصلًا، إلا إذا سأله فإنه يجيبه على قدر السؤال، ولم يزل يستعمل ذلك معه حتى أذن له بالتكلم فى مجلسه فى بعض رحلاته إلى القاهرة، وسببه : أنه لما رأى إقبال الناس عليه، وتوجههم إليه، قال له : انبسط إلى الناس واستقبلهم، لأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم.

ومن أدبه وامتثاله لأمر شيخه : إنه قال له مرة تعال الليلة مع الجماعة، واذكروا عندنا فى البيت، فلما دخل الليل نزل شتاء ومطر شديد، فذهب أستاذى إليه حافيًا والمطر يسكب عليه، وهو يخوض ذلك الوحل.
فقال له : كيف جئت فى هذه الحالة، فقال له : يا سيدى إنكم أمرتونا بالمجىء، ولم تقيدوه بعذر، وأيضًا لا عذر والحالة هذه لا مكان المجىء، وإن كنت حافيًا.

فقال له : أحسنت هذا أول قدم فى الصدق والكمال، وكان جالسًا معه وهو يحرر فى الصلاة البرية له، فتثائب أستاذى، فقال : كيف تتثائب وأنت فى هذه الحضرة، ماذا صنعت حتى دخل عليك الشيطان فإن التثاؤب من الشيطان، وحضرة الشيخ حضرة الله لا يدخلها شيطان.

ثم قال له : أما فى هذا المجلس أو فى مجلس آخر، إن التثاؤب على قسمين ؛
إما من الشيطان، وإما غلبة نوم أو كسل.
فلما علم صدق حاله، وحسن فعاله، قدمه على خلفائه وأولاده حسن ولاية، ودعاه بالأخ الصادق، ومنحه أسرارًا، وأراه عيون الحقائق.

فمن ذلك : إنه ذكر فى " رحلته المصرية " ما يدل على إنه أعطاه الاسم الأعظم.
حدثنى الأخ الصدوق، وعلامة المفهوم والمنطوق، الشيخ حسين الشبينى :
إنه رأى فى الرحلة المذكورة ما نصه :
وجانا فى ذلك الوقت الحُفَينى المصغر للتحبب، المكبر فى عينى، وتكلم معنا فى الاسم الأعظم، فمنحناه من ذلك، أو فأشبعناه، أو نحو ذلك.
وقال فيها مشيرًا إليه : وما جانى مرة من المرات إلا وجدت انشراحًا وانبساطًا، وكان يصلى مقتديًا به.

وصلى مرة به - رضى الله عنه - فبسمل، ثم بعد ختم الصلاة قال له رجل من أتباع السيد شيخه، وكان عزيزًا عليه، يقال له حافظ محمد الهندى :لِمَ لَمْ تراع مذهبنا وتترك البسملة ؟ وكان المذكور حنفيًا، وكذلك شيخه السيد الصديقى، إلا إنه كان يقلد إمامنا الشافعى -رضى الله عنه-.

فقال له أستاذى : أنا شافعى، وحضرة الأستاذ مقلد الشافعى.
فلم يسكت وأخذ يفركه، والسيد صامت، وكان كما علم مما مر يستح أن يتكلم فى مسجد السيد، فغلب عليه الحال فبكى.
فقال لى : وكان بكائى خوفًا من أستاذنا أن يكون تأثر منا بسبب حافظ محمد.

ثم إن السيد قال له : يا حافظ محمد مالك ومال الحفناوى ؟ فقال له : إنه يبسمل فى الصلاة، ولا يراع مذهبنا.
فقال له السيد على الفور : هل البسملة فى مذهبكم حرام، وأغلظ عليه فى الكلام.
قال : يكفى أسكت لا تتكلم أصلًا.

فما ظهر النهار حتى أن الحافظ محمد هذا أخد حوائجه من بيت السيد، وخرج هائمًا، فلقى بعد أيام بعض الناس، فقال له : إن السيد طردنى بالقلب بسبب الحفناوى، وإنى قد أصبت فأنا أدعو عليه.
فأخبر الرجل أستاذى بذلك، فأخبر به السيد، فقال له : لا بأس عليك، وما عليك منه.

وهكذا كان حال السيد معه لا يقدم عليه أحد، لما علم من أخلاقه المطهرة، وأحواله المعطرة، وصدقه الذى هو أساس الطريق، وأدبه الذى هو الدعائم فى التحقيق.

قلت : وبعد تلقينه الاسم الثالث كما تقدم، سافر شيخه السيد الصديقى إلى بيت المقدس، فلما كان عام تسع وثلاثين، توجه السيد من بيت المقدس قاصدًا الحجاز للحج، فأرسل إليه مكتوبًا فى أثناء الطريق، وفيه دائرة فيها اسم حق.
وكتب له : برز الإذن الإلهى بأن تكون خليفة عنا، وتأخذ العهد، وتلقن الذكر، وتربى المريدين.

قلت : وكيفية تلقين الذكر وأخذ العهد، وجدت بخط أستاذى بظهر ثبت عبد الله بن سالم البصرى ما نصه هذه صورته :
أخذ العهد أرسلها إلى أستاذى وملاذى السيد البكرى الصديقى الخلوتى، حين أذنه بأخذ العهود على طريقة السادة الخلوتية، ونص ما كتب :

كيفية المبايعة للنفس الطائعة :
يجلس المريد للولى الحميد بين يدى الأستاذ الذى به لاذ، ويلصق ركبته بركبته، متعلقًا بمودته ومحبته، والشيخ مستقبل القبلة لأنها جهة الوصلة، ويقرأ فاتحة للأبواب الإمدادية فاتحة، ويضع يده اليمنى فى يده مسلمًا له نفسه، مستمدًا من إمداده، ويقول له المربى الألمعى :
قل معى أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم، ويتعوذ، ويقرأ آية التحريم : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا } ٠

ثم يقرأ آية المبايعة التى فى الفتح ليزول الاشتباه وهى :
{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } ٠

ثم يقرأ فاتحة، ويدعو الله تعالى لنفسه وللأخذ بالتوفيق، ويوصيه بالقيام بأوراد الطريق، والدوام على ذوق أهل هذا الفريق، وعرض الخواطر، وقص الرؤيات العواطر ٠

وإذا وقعت الإشارة بتلقين الاسم الثانى : لقنه ليبلغ الأمانى، وفتح له باب توحيد الأفعال إذ لا غيره فعال ٠
وفى الثالث : توحيد الأسماء ليشهد السر الأسمى ٠
وفى الرابع : توحيد الصفات ليدرجه إلى أعلى الصفات ٠
وفى الخامس : توحيد الذات ليحظى بأوفر اللذات ٠
وفى السادس والسابع : يكمل له التوابع ٠
ونسأل الله تعالى الهداية والرعاية والعناية والدراية، والحمد لله رب العالمين ٠ اه
هذا ما كتبه بخطه الشريف ٠

ورأيت أيضًا بظهر الثبت المذكور ما نصه :
ثم رأيت فى الفتوحات الإلهية فى نفع أرواح الذوات الأنسانية، وهو كتاب نحو كراس لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ما نصه :

إذا أراد الشيخ أن يأخذ العهد على المريد، فليتطهر وليأمره بالتطهر من الحدث والخبث، ليتهيأ لقبول ما يلقيه عليه من الشروط فى الطريق، ويتوجه إلى الله تعالى، ويسأله القبول لهما ٠
ويتوسل إليه فى ذلك بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ لأنه الواسطة بينه وبين خلقه، ويضع يده اليمنى على يد المريد اليمنى بأن يضع راحته على راحته، ويقبض إبهامه بأصابعه ٠
ويتعوذ ويبسمل، ثم يقول :

الحمد لله رب العالمين، أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ويقول المريد مثل ما قال.
ثم يقول له : قل اللهم إنى أشهدك، وأشهد ملائكتك، وأنبيائك، ورسلك، وأوليائك، إنى قد قبلتك شيخًا فى الله، ومرشدًا، وداعيًا إليه.

ثم يقول الشيخ : اللهم إنى أشهدك، وأشهد ملائكتك، وأنبيائك، ورسلك، وأوليائك، إنى قد قبلته ولدًا فى الله، فاقبله وأقبل عليه، وكن له ولا تكن عليه.
ثم يدعو كأن يقول :
اللهم أصلحنا وأصلح بنا، واهدنا واهدى بنا، وأرشدنا وارشد بنا.
اللهم أرنا الحق حقًا وألهمنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.
اللهم اقطع علينا كل قاطع يقطعنا عنك، ولا تقطعنا عنك، ولا تشغلنا بغيرك عنك. انتهى

والمراتب السبعة التى أشار لها السيد - رضى الله عنه - فى الكيفية المتقدمة :
هى مراتب الأسماء السبعة، وللنفس فى كل مرتبة منها مرتبة باسم خاص دال عليها :

الاسم الأول : لا إله إلا الله، وتسمى فيه النفس آمارة.
والثانى : الله، وتسمى فيه النفس لوامة.
والثالث : هو، وتسمى النفس فيه ملهمة.
والرابع : حق، وهو أول قدم يحله المريد فى الولاية، كما مرت الإشارة إليه، وتسمى النفس فيه مطمئنة.
والخامس : حى، وتسمى النفس فيه راضية.
والسادس : قيوم، وتسمى يه النفس مرضية.
والسابع : قهار، وتسمى النفس فيه كاملة، وهو غاية التلقين.

وكلها تلقن فى الأذن اليمنى، إلا السابع ففى اليسرى، وتلقينها بحسب ما يراه الشيخ من أحوال المريدين ؛ أفعال وأقوال، وعالم مثال، كما مرت الإشارة إليه فى كلام السيد الصديقى - رضى الله عنه وأرضاه - وجعل الجنة متقلبه ومثواه.

واعلم أن سلسة القوم هذه من كيفية أخذ العهد والتلقين، مروى عن النبى - صلى الله عليه وسلم -، وهو يرويه عن جبريل، وهو يرويه عن الله عز وجل.

وفي بعض الروايات : روايته عن رؤساء الملائكة الأربع، والنبى - صلى الله عليه وسلم - لقن عليًا - رضى الله عنه - وصورة ذلك كما فى " ريحان القلوب فى التوصل إلى المحبوب " لسيدى يوسف العجمى :
أن عليًا سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال له :
يا رسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله تعالى.
فقال : يا على عليك بمداومة ذكر الله فى الخلوات.
فقال على - رضى الله عنه - : هذا فضيلة الذكر، وكل الناس ذاكرون.
فقال - صلى الله عليه وسلم - : يا على لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله.

فقال على : كيف أذكر يا رسول الله ؟
قال : أغمض عينيك، واسمع منى ثلاث مرات، ثم قل أنت : لا إله إلا الله ثلاث مرات وأنا أسمع٠
فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضًا عينيه، رافعًا صوته، وعلىٌّ يسمع، ثم قال علىٌّ : لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضًا عينيه، رافعًا صوته، والنبى -صلى الله عليه وسلم - يسمع٠

ثم لقن الحسن البصرى - رضى الله عنهما - على الصحيح عند أهل السلسلة الأخيار من المحدثين٠

وفى " بستان الشريعة " فى كيفية أخد العهد على علىٍّ بن أبى طالب زيادة، نافيًا عن اليمين مثبتًا فى الشمال، أى قائلًا : لا إله إلا الله، وهو مائل العنق إلى الجهة إلى الجهة اليمنى، ثم إلا الله وهو مائلًا إلى الجهة اليسرى لأنه موضع القلب، والشيطان جاثم خرطومه عليه، فإذا ذكر العبد خنس كما فى سنن سعيد بن منصور٠

وذكره الحافظ بن حجر فى حكمة كون خاتم النبوة مما يلى الكتف الأيسر٠
واعلم أن زيادة الثقة مقبولة، وما فى الأحاديث من إطلاق محمول على هذا التقييد كما بينا ذلك فى رسالة، بسبب اعتراض بعض الناس علينا فى التمايل حالة الذكر٠

وقد ألف شيخى وأستاذى فى ذلك رسالة أيضًا، نذكرها آخر هذا الباب، ثم أعقبها بمنظومتى فى أسماء رجال الطريق يسهل حفظهم٠

وبما ذكر علم أن الشيخ الأستاذ الحفناوى قد صار خليفة عنه مجازًا، يأخذ العهود والتلقين، غير أنه لم يأخذ عليه أحد، ولم يظهر شأنه إلا بعد عودته من بيت المقدس كما سيأتى ذكر ذلك إن شاء الله٠

الفصل الثانى : فى نسب شيخه السيد مصطفى البكرى الصديقى، وبيان بعض أحواله، ليعلم عظيم قدره، وأن مثله من يقتدى به ويؤخذ عنه٠

٠٠٠ نشأ -رضى الله عنه- ببيت المقدس على أكرم الأخلاق وأكملها وأحسنها وضعًا وأعدلها٠
رباه شيخه الشيخ عبد اللطيف الحلبى، وغذاه بلبان أهل المعرفة والتحقيق، ففاق ذاك الفرع الأصل، وظهرت به فى أفق الوجود شمس الفضل٠

فبرع فهمًا وعلمًا، وأبدع نثرًا ونظمًا، ورحل إلى رجل الأقطار لبلوغ أجل الأوطار، كما دأب على ذلك السلف لما فيه من اكتساب المعالى والشرف٠
وفى رحلته إلى إسلامبول لبس فيها ثياب الخمول، ومكث بها سنة لم يؤذن له بارتحال، ولم يدرى كيف الحال٠

فلما كان آخر السنة قام ليلة فصلى على عادته من التهجد ما شاء أن يصلى، ثم جلس لقراءة الورد السحرى فأحب أن تكون روحانية النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك المجلس، ثم روحانية خلفائه الأربعة، ثم روحانية الأقطاب الأربعة، ثم روحانية الملائكة الأربعة٠

فبينما هو فى أثناء الورد، وإذا رجل داخل عليه فشمر عن أذيال له، كأنه يتخطى أناسًا فى المجلس، حتى انتهى إلى موضع فجلس فيه٠
ثم لما ختم السيد الصديقى الورد، قام ذلك الرجل فسلم عليه، ثم قال :
ماذا صنعت (كلمة غير واضحة) فقال له : ما صنعت شيئًا٠
فقال له : ألم ترانى أتخطى الناس، قال : بلى٠
إنما وقع لى إنى أحببت أن تكون روحانية فى ذكرنا، ثم حاضرة٠
فقال له : لم يتخلف أحد ممن أردت حضوره، وما أتيتك إلا بدعوة، والآن أذن لك فى الرحيل، وحصل الفتح والمدد٠
والرجل المذكور : هو الولى الصوفى السيد محمد التافلاتى٠

قال أستاذى : ومتى عبر السيد الصديقى " بالوالد " فى كتبه فهو السيد محمد التافلاتى، وقد منحه علومًا جمة٠

ورحل أيضًا إلى جبل لبنان، وإلى البصرة، وبغداد وما والاها، وحج مرات، وتآليفه تقارب المائتين، وأحزابه وأوراده أكثر من ستين، وأجلها ورده السحرى إذ هو باب الفتح، وله عليه ثلاثة شروح، أكبرها فى مجلدين٠
وقد شاد أركان الطريقة، وأقام رسومها، ومنحه الله من خزائن الغيب مالا يدخل تحت حصر٠

أخبرنى أستاذى عنه : إنه جمع مناقب نفسه فى مؤلف بلغ نحو أربعين كراساً تسويدًا فى الكامل، ولم يتم٠
وقد رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - مرة فى النوم، وقال له : من أين لك هذا المدد ؟
فقال : منك يا رسول الله، فأشار أن نعم٠

ولقى الخضر - عليه السلام - ثلاث مرات، وعرضت عليه قطبانية المشرق فلم يرضها٠
وأخبرنى من أثق به :
إنه كان إذا مشى على أرض فرش له بساط من نور يمشى عليه، حتى سار مع بعض أولياء عصره مرة، فقلع ذلك الولى نعله، فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : أستحى أن أمشى على بساط كرامتك بنعلى٠

وكان أكرم من السيل، وأمضى فى السر من السيف، وأوتى مفاتيح العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه فى مشارق الأرض ومغاربها، وأخذ على رؤساء الجن العهود، وعم مدده سائر الوجود٠

ومن منح الله له أستاذنا حفظه، ونشر طريقته، وأظهر تحقيقه، وقام فى خدمته أتم قيام، وأخلص فى حبه، والصدق فيه، وإظهار ذلك بين الأنام، ولذلك لم يدعه إلا بالأخ الصادق كما ستعلمه، وهو أجل وأعظم من تخلق عنه، ولذلك لم يظهر على يد أحد من خلفائه ما ظهر على يد أستاذنا ؛ من ظهور هذه الطريقة أتم ظهور٠
ولذلك منحه جميع أسراره، وقدمه فى جهر القول وأسراره، ولم يخرج من الدنيا إلا وهو عنه راض٠

سمعت أستاذنا يقول بعد وفاته : إنى أود الآن لو كان أستاذنا الصديقى حيًا، وأكون خادمًا له فقط، وأحظى بلثم أعتابه، وهذا من كمال أدبه - رضى الله عنه -، وإلا فهو مع وجود شيخه السيد لم يكن حال، ولا قال إلا به، ولم يكن معه إلا بمنزلة الخادم، ولم يقع منه معه منذ لازمه إلى حين وفاته، إلا غاية الأدب والحال المرضى٠

دخل عليه مرة وكان ذلك فى أوائل نشأة العلم، فوقف واضعًا يديه على صدره أدبًا فى حضرته، وكان بعض من يعرف الشيخ حاضرًا٠
فقال له : يا سيدى الشيخ اجلس، فسكت ولم يتكلم ولم يجلس، فكرر عليه ذلك الرجل قوله، فلم يسمع له، فقال للسيد الصديقى : يا سيدى قولوا للشيخ يجلس٠
فقال له : يا حفناوى اجلس، فجلس٠
فانظر إلى هذا الأدب - رضى الله عن الجميع -، وهو الذى رفعه وقدمه٠
قلت : وهذا خلقه فى الأدب دائمًا من بدأ نشأته لم يعهد منه إلا الأدب والحياء٠

ثم حج مولانا السيد الصديقى عام أحد وستين، وعاد من الحجاز إلى القاهرة، فمرض عقب دخوله مدة شهر، فكان مولد السيد البدوى، فأراد الشيخ أستاذنا أن يتخلف عن الذهاب إليه لأجل السيد، فأشار له بعدم التخلف٠

فتوجه أستاذنا إلى المولد الشريف، فتوفى السيد الصديقى وهو فى المولد ليلة الثانى عشر من ربيع الثانى، عام اثنتين وستين ومائة وألف، ودفن بالقرافة الكبرى خارج القاهرة، وقبره ثم مشهد بزيارته تضاعف الأجور٠

وقد عمل له أستاذى فى شهر شعبان فى هذا العام مولدًا عظيمًا، شدت إليه الرحال، وحطت لديه الأثقال، وتطاولت دونه الآمال، وعزم على (كلمة غير واضحة) ذلك كل عام مع المزيد٠

وحين بلغته وفاة السيد تعب تعبًا شديدًا، واشتد به الكرب جدًا، وضاقت عليه الأرض برحبه، وحق له ذلك٠

وبالجملة : فمناقب هذا السيد الجليل تجل عن التعداد، وفيما أشرنا إليه كفاية لمن أراد، وهو أشهر من نار على رأس علم، وأعظم من أن يذكر بلسان أو ينمق بقلم٠

الفصل الثالث من الباب الثاني : في رحلة أستاذنا إلى بيت المقدس، وما حصل له فيها من أمور رفعت قدره، ونشرت ذكره.

اعلم أن أستاذنا - رضى الله عنه - عقب إذن السيد له يأخذ العهود وتلقين الذكر.
لم يقع له تسليك أحد فى هذه الطريقة كما تقدم، إنما كان شغله وتوجهه كله إلى العلم وإقرائه، لكن ذلك بجسمه، وأما قلبه فلم يكن إلا عند شيخه السيد الصديقى، ولم يزل كذلك إلى عام تسع وأربعين، فحن جسمه إلى زيارة شيخه، وأنشد لسان حاله :
أخذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى * يضركم لو كان عندكم الكل.

فأرسل إليه مولانا السيد الصديقى يدعوه إلى زياره، فهام إذ فهم رمز إشارته، وتعلقت نفسه بالرحيل فترك الإقراء والتديرس، ولزم البيت منتظرًا التوجه، وخلع ثياب الزنية الثمنية، ولبس الخرق والصوف، وتقشف غاية التقشف حتى أشيع بين الناس إنه قد جن.

فأخبره بعض الناس بذلك، وأقسم عليه أن يلبس ثياب زينة كعادته، ويخرج إليهم ليتيقنوا البرأ من ذلك وليفرح المؤمنون، فلبس ثيابه ومر بالناس وهم مجتمعون، فسلم عليهم فرأوه كما عهدوه فزال ما كان بهم.

ثم زار الإمام الحسين، ورجع لحاله الذى شرع فيه، فأشيع بين الناس أيضًا أن الشيخ الحفناوى قصده التوجه والخروج من مصر لما فيه من ضيق العيش، فبلغ ذلك بعض علماء عصره، فقال : لا نمكنه من السفر أبدًا، فإنه واسطة عقد مصر، وإن خرج منها أظلمت، ولم نجد من ينفع الناس مثله.

وجاءه بعض معاصيره أيضًا، فقال له : بلغنا أنك تريد سفرًا لضيق العيش، وأنا أرى عدم سفرك، والله هو الرزاق ذو القوة المتين.
قال - رضى الله عنه - : فلم أرد له جوابًا.

فما كان إلا عن قليل، وقدم بعض الجمالين، فقيل له : إن فلانًا أتى وكان منتظرًا له فسافر معه، حتى أتى قرية بلبيس.
فقيل لهم : أن طريق الجادة غير مأمونة الخطر لأن العرب قد قعدوا بها يمنعون الناس السبيل.

فقال جماله : نسلك إذًا من طريق أبى عروق، فأعطاه بعض أهل القرية ماء عذب، وقال له : احمل هذه معك للشيخ ليشرب منها، فإنه لم يكن فى هذه الطريق ماء عذب أصلًا، وإنما بها بئر مالح.
فحملها معه وسلكوا تلك الطريق، فلم يجدوا فيها رفيقًا ولا فريقًا إلا العلى الأجل.
ثم وصلوا إلى غزة وهم فى خير وعافية، ولطف من الله تعالى.

ومنها إلى قريب بيت المقدس، فقيل له : إذا دخلت بيت المقدس فادخل من الباب الفلانى، وصلى ركعتين، وزر محل كذا٠
فقال لهم : أنا ما جيت قاصدًا بيت المقدس، وما جيت إلا قاصدًا أستاذنا السيد البكرى، ولولاه فى بيت المقدس ما جئته، فلا أدخل إلا من أبوابه، ولا أصلى ركعتين إلا فى بيته٠

فعجبوا له فبلغ السيد كلامه، فكان سببًا لإقباله عليه، وإمداده٠
ثم سار حتى دخل بيت المقدس فتوجه إلى بيت الأستاذ البكرى فقابله بالرحب والسعة، وأعد له مكانًا لجلوسه، ثم استأذنه فى المجاهدة من ؛ صلاة وصوم وذكر وعزلة وخلوة٠
فقال له : دونك فافعل، وهذا محل معد لك٠

قال ـ رضى الله عنه ـ : فأخذت فى المجاهدة فوجدت فى قلبى قسوة، فبينما أنا جالس يومًا فى الخلوة، وإذا بداع يدعونى إلى أستاذى الصديقى فأجبته وذهبت إليه٠
فوجدت بين يديه مائدة، فقال : أنت صايم ؟ قلت : نعم، فقال : كل فامتثلت وأكلت٠
فقال :
اسمع ما أقول لك إذا كان مرادك صومًا وصلاة وجهادًا أو رياضة، فليكن ذلك فى بلدك، وأما عندنا فلا تشتغل بغيرنا، ولا تقيد أوقاتك بما تروم من المجاهدة، وإنما يكون ذلك بحسب الإستطاعة، وكل واشرب وانبسط٠

قال : فامتثلت إشارته، ومكثت عنده أربعة أشهر كأنها ساعة غير إنى لم أفارقه قط خلوة وجلوة٠
قلت : وقد منحه فى هذه المدة جميع أسراره، وخلع عليه خلعة القبول، وتوجه بتاج العرفان، وأشهده مشاهد الجمع الأول والثانى، وفرق له فرق الفرق الثانى، فحاز من التدانى أسرار المثانى، وجاز على مستوى المثانى، ففاز بالأمانى، وأعطاه مفاتيح كنوز المعارف، ومصابيح الإرشاد والتسليك واللطائف٠

ثم لما انقضت هذه المدة، وأراد العود إلى القاهرة، ودعه وما ودعه، وسار حتى وصل إلى قرية بيت المقدس وغزة، فبلغ خبره أمير تلك القرية، وكانت الطريق مخيفة فتوجه مع قافلة (كلمات غير واضحة) فساروا فلقيهم فى أثناء الطريق أعراب فأخافوهم٠
فقالوا لأهل القافلة :
لا تخافوا فلسنا من قطاع الطريق، وإن كنا منهم فلا نقدر نكلمكم وهذا معكم، وأشاروا إلى حضرة أستاذنا٠

ولم يزالوا سائرين حتى انتهوا إلى مكان فى أثناء الطريق بعد مجاورة للعريش بنحو يومين، فقيل لهم : إن طريقكم هذا غير مأمون الخطر، ثم تشاوروا، فقال لهم أعراب ذلك المكان : نحن نسير معكم ونسلك لكم طريقًا غير هذا، لكن اجعلوا لنا قدرًا من الدراهم نأخذه منكم إذا وصلتم إلى بلبيس٠

فتوقف الركب أجمعين، فقال أستاذنا : أنا أدفع لكم هذا القدر هنالك، فقالوا : لا سبيل إلى ذلك كيف تدفع وأنت مالك فى هذا القافلة شىء، والله ما نأخذ منك شيئًا، وإنما إذا ضمنت أهل القافلة نقبل ذلك.

فاتفق الرأى على دفع الدراهم ممن فى القافلة من أرباب التجارات بضمانة الشيخ فضمنهم، وساروا حتى وصلوا إلى بلبيس ثم منها إلى القاهرة، فسرت به أتم سرور وأشرقت الأرض بنور ربها، وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

فأقبل عليه الناس من حينه أتم قبول، ودانت لطاعته الرقاب، وأخذ العهود على العلام، وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار، وأحيا طريق القوم بعد دروسها، وأنقذ من ورطة الجهل هجًا فى غبى نفوسها، فبلغ هديه الأقطار كلها، وصار له فى كثير من قرى مصر نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى.

ولم يزل أمره فى ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقاطر الأرض الطول منها والعرض، ودعى بصاحب الجلالة إشارة لكلمة الإخلاص " لا إله إلا الله ".

أخبرنى العلامة الشبينى :
أن امرأة من المخدرات جاءت تسأل عنه عقب صلاة الجمعة، وتقول : أين صاحب الجلالة، قصدها التبرك بزيارته.

وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله تعالى بطريقته، التى أحيا بها مهجًا موتى، وفتح بها عيونًا عميًا، وأذان صمًا، وقلوبًا غلفا، وصار خليفة الوقت وقطبه.

أخبرنى بعض الإخوان : أن رجلًا من الأولياء المجاذيب قال وأستاذى خارج من المسجد عقب صلاة الجمعة : أتدرون من قطب الوقت هذا، وأشار إليه بيده.

قلت : لم يبق ولى من رجل عصره إلا أذعن له، ولقيه مرة بعض الناس ولم يعرفه فأعطاه ورقة ثم اختفى، والتمسه فلم يجده.
فأخذ الورقة ورمى بها، ثم بعد مدة فتحها فإذا فيها كتابة بخط مغربى مطلعها :
نشكر سلطان الدنيا والآخرة أولًا أنا المهدى، وأنا وأنت نهدى الناس إلى الطريق الحق، ولولا إحياؤك الكون بذكر الله، لصب البلاء على الخلق من قريب أظهر، وتكون معينًا لى، ونحو ذلك من ألفاظ ترهيب وترغيب، ولم يعرف ذلك الرجل حتى الآن.

وظهرت على يديه الخوارق العجيبة وقد مر ذكر بعضها.
ومنها : أن جميع جماعته وأتباعه يعرفون عن غيرهم فى سائر البقاع، ويتميزون سيما بالأنوار فى جميع الأمصار، ولم يزالوا مغمورين بالألطاف والرحمات والإسعاف، لن
يضاموا أين كانوا أبدًا.

سمعت منه أنه يقول : أولادنا وأتباعنا جميعًا فى (كلمة غير واضحة) وستر من الله
تعالى، وفى دعة وحفظ.

وأخبرنى : أن بدويًا نهب بعض الحجاج ومما فيه صندوق فيه بارود ورصاص.
فقال البدوى للرجل : احمل وحمل الصندوق معى إلى الدار.
قال له : أنا لا أقدر على ذلك، واعفنى فإنى من جماعة الحفناوى.
فقال : وما الحفناوى ؟
قال : شيخ بمصر كبير.
فقال له : بحقه عليك إلا ما حملته معى إلى الدار.
فقال له : حيث أقسمت على به أنا أحمله، لكن أسأل الله بجاهه أن يحرقك به.
ثم حمله معه إلى داره ففتح الصندوق، وقال لامرأته : اتينى بنار لأجربه.
فقالت له : يا هذا دع أما سمعت، فقال الرجل (كلمات غير واضحة) امرأته من عنده، وأتى بنار فنشبت فى الصندوق فأحرقته، وداره حتى لم يبق إلا فحمة.

الفصل الرابع : فى بيان خلفائه والسالكين على يديه :

اعلم أنه حين تصدى للتسليك وأخد العهود، أقبل عليه الناس من كل فج عميق لأخذ الطريق، وكان فى بدأ الأمر لا يأخذون إلا بالاستخارة، وإستشارة، وكتابة أسمائهم، ونحو ذلك من آداب٠

فكثر الناس عليه وكثر الطلب، فأخبر شيخه السيد الصديقى بذلك٠
فقال له : لا تمنع أحدًا يأخذ عنك ، ولو كان نصرانيًا من غير شرط٠

قال ـ رضى الله عنه ـ :
فنزلت عقب ذلك لزيارة سيدى أحمد البدوى فلقينى خلق كثير لأخذ العهود، فرأيت فيهم نصرانيًا، فمنعوه، قال : فذكرت قول أستاذنا : لا تمنع ولو نصرانيًا٠
فقلت لهم : دعوه لعل الله أن يهديه فكان كذلك٠

قلت : تقدم أنه أسلم على يديه خلق كثيرون من النصارى، ولم يمنع أحدًا أبدًا حتى الأن٠

فأول من أخذ الطريق وسلك على يديه، وتخلق عنه :
الولى الصوفى العالم العلامة، والبدر الفهامة الصالح المرشد المربى الشيخ أحمد الفوى٠

وقد ترجمه السيد البكرى فى أبحر السلاسل، وحل إليه من فوة بسبب ما كان فيه من الضيق ورموه أهلها بما يكره، وسدوا عليه كل طريق، وقذفوه، وكان مبتذلًا مهانًا لا يعرف التقوى، ولا السبب الأقوى٠

فأشار عليه بعض إخوانه بالرحلة إلى مصر، وأخذ العهد من الشيخ الأستاذ فى طريقة الخلوتية، فارتحل منها إلى القاهرة، وجاء لأستاذه فأخذ عليه العهد٠

فأخذ عليه العهد، ورباه تربية المريدين، وغذاه بلبان سر طريق الموحدين، ولقنه الاسم الأول ثم الثانى إلى الخامس، بحسب سيره وأطواره ومرائيه٠

ثم لما استحق تلقين الاسم السادس، امتنع الشيخ الأستاذ من تلقينه، وقال له توجه بنا إلى أستاذى الصديقى ليلقنك، وكان إذ ذاك بالقاهرة، فتوجه به إليه، وسأله فى التلقين٠

فقال له : لِم لَم تلقنه أنت ؟
قال : يا سيدى أنا لم أتلقن منك إلا إلى ها هنا٠

فقال السيد يا لله العجب، أنا نسيت ألقنك ما بقى، ثم لقنه فى ذلك المجلس الاسم السادس والسابع٠
وقال له : اذكر كل اسم منهما مائة ألف، وهكذا يكون التلقين لمن وجدت فيه أهلية، ومن أراد سفرًا أو نحوه، فإنه يلقن الأسماء جميعًا ويؤمر باستعمال كل اسم منها مائة ألف، فإنه يستحقها بذلك٠

ثم أن الأستاذ الحفناوى لقن الشيخ أحمد البنا المذكور الاسم السادس ثم السابع على حسب سلوكه، ثم ألبسه تاج الطريق والخلافة أجازه بالتلقين والتسليك٠

أخبرنى من أثق به : أن مدة سلوك الشيخ أحمد المذكور قريب من سبعين يومًا، وما تمت هذه المدة حتى صار أكسيرًا إمامًا عارفًا عالمًا شيخًا مربيًا٠

ثم أن الشيخ أذن له بالتوجه إلى بلده فوة وتسليك الناس بها إلى السبيل الأقوم، فنزل إليها وحين دخلها أقبل عليه الناس، وعاد عدوه صديقه، وعاذله عاذلًا، وقاذفه تائبًا٠

فأخذ العهود وأدار مجالس الأذكار، فسكر الندمان، ودخلوا دائرة الأمن، ونارت الدجنة، وأصحبت القلوب مطمئنة، وجلس للتدريس فنفع وأفاد، وألف وأجاد٠

ثم عاد إلى مصر ولزم أستاذه، فحصلت منه هفوة، واعلم أن هفوات أهل الطريق من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين٠
فأخذه الشيخ بها، وقال له وقد جاء إلى بيته يومًا : اذهب فلا تأتينى أبدًا٠

فخرج من عنده فلقى بعض الناس، فقال له : يا فلان طردنى الشيخ، فالآن طاب الموت٠
فقال : لا بأس عليك، قال : لا فائدة أبدًا إلا الموت٠
ثم جاء إلى خلوته فى سطح الجامع الأزهر، فمرض فيها ومات عقب ذلك٠

فذهب إليه الأستاذ، وأتى به إلى البيت، وغسله ثم شيعه ودفنه فى القرافة الكبرى، وكان له مشهد عظيم، ونور كريم، وكان يرى النبى - صلى الله عليه وسلم - كثيرًا فى النوم واليقظة٠

وفى مبشراته : أنه رآه مره، فقال له - صلى الله عليه وسلم - : يا أحمد لا تخف ولا تحزن ثلاث مرات٠
وسمعت أستاذى يثنى عليه الثناء الجميل، فرحمه الله رحم مضجعه، وجمعنا به فى غرفات الجنان، إنه كريم جواد حنان٠

ومن تخلق عنه، وسلك على يديه أيضًا :
الشيخ الإمام بركة المسلمين والإسلام، مربى المريدين، وكعب الواصلين الولى الصوفى الصائم القائم العابد الزاهد : الشيخ محمد المنير السمنودى.

ثم السمانودى المعروف بالمعروف، والذى هو بكل فضل موصوف، شيخ القراء المحدثين، وصدر الفقهاء والمتكلمين، رحل إلى الجامع الأزهر واشتغل بطلب العلم، وأخذه عن مشايخ الوقت إذ ذاك.
منهم العالم العلامة الفقيه الشيخ عبده الديورى، وشيخ التأصيل والتفريع قطب التوشيخ، المجمع على جلالته ومعرفته واتقانه الشيخ محمد السجينى.

واشتغل بعلم القرآن على النحو المرضى من طريق الشاطبية والطيبة للعشرة، على شيخ القراء إذ ذاك بالقاهرة الشيخ محمد الرميلى، والمقرىء العلامة الشيخ البقرى، وأجازه الجميع بالإفتاء والإقراء والتدريس.

ثم جذبته يد العناية، ودعته إلى خان الهداية، فجاء مقبلًا بكله، وكله فارغًا من قوته وحوله، وأخذ العهد على أستاذى، وسلك على يديه، فلقنه الأسماء السبعة على حسب سيره وسلوكه.
فلما أتم الاسم السابع، أفرغ عليه حلة الخلافة، توجه بتاج أهل طريق المعرفة واللطافة، وقد أثبت اسمه أيضًا فى بحر السلاسل، التى كان كل من رآها انقاد للإذعان بالسلاسل.
وظهرت عليه أنوار القبول والإقبال، وضربت بحمد سيرته الأمثال.

ثم أذن له بالتوجه إلى سمانود ليرشد الناس بتلك البلاد، وسلك بهم طريق السداد، فنزل إليها فأقبل عليه الكبير والصغير، وأخذ العهود على الناس إلى الذكر المعهود، فعطر بنشر أنفاسه المجالس، وأذعن لفضله النائى والمجالس، وسلك المريدين، وكثرت أتباعه، وانتشر أتباعهم، وظهرت على يديه الخوارق، وصار يدعى " بالمريد الصادق ".

وقد قال أستاذى : إنه الخليفة الحق فى حياتى، وبعد مماتى.
قلت : وهو جدير بهذه المنقبة، فإنا لم نر مثله فى أرباب السير والسلوك.

ومن مناقبه الحميدة :
صيام الدهر مع عدم التكلف لذلك، وقيام الليل يقرأ فى كل ركعة ثلث القرآن، هذا ورده دائمًا صيفًا وشتاءًا، وشيخًا ويافعًا.

ومنها : تواضعه وخموله وعدم رؤية نفسه، بل لا يراها إلا أحق بالذم دائمًا.
ولقد رأيته مرة يبرأ فى أن تنسب إليه منقبة، ويحب التستر بالطاعة مهما أمكن.

وله مؤلف عظيم الجدوى، كثير الفائدة يشتمل على كيفية السير والسلوك فى طريق القوم.
ومؤلف آخر فى الفقه وفى علم القراءات، وأفرد رواية ورش بمؤلف، ونثر الطيبة من طريق العشرة فى مؤلف عظيم، وأودعه سر علوم القرآن، وغير ذلك من مؤلفاته ؛ كمولى قصة المولد النبوى، وأفاض فيها، وله فى الشعر وعيونه، وموشحاته اليد الطولى.

ومن كراماته :
أن أهل بلده حفروا بيرًا وأطالوا فيها، فلم يخرج لهم ما نقبوا، ثم أنهم سألوه أن يقف عليها ويتوجه بقلبه علمًا، فخرج إليها وقرأ الفاتحة، ودعا الله، وقال :
احفروا وافحروا، فإذا الماء يتفجر من خلال الأرض كأنه بحر٠

ومنها : أنه أتى له برجل فى المرسمين الذين لا ينطقون أصلًا، فأدخله الخلوة، وتوجه إلى أستاذى كما أخبرنى، ثم لقن الرجل كلمة الشهادة، فنطق بها وخرج من الخلوة متكلمًا٠

ومنها : أنه كثر اعتراض الناس عليه فى بدأ الطريق، حتى كمنوا له بالسلاح٠
فقال : دعوهم ولا بد من النزول، فنزل فرفع أحد الكامنين له السلاح فيبست يده على سلاحه وبطلت مركبته٠

وبالجملة : فمناقبه كثيرة وأحواله اه بين الورى شهيرة٠
وقد أجمع العالم على حبه واعتقاده وحسن سيره، وسبك بهذا فى هذا الزمان٠

<u>ومنهم : علامة وقته وأوانه، الولى الصوفى من صفا فصوفى، المحقق الشيخ حسن الشيبنى، ثم الفوى٠</u>

رحل من بلدته فوة إلى الجامع الأزهر للاشتغال بالعلم وأخذه عمن يؤخذ عنهم، فحين دخله حضر مجلس العالم العلامة الفقيه المدرس أحمد الديربى، فجعله ممليًا عليه فى الدرس٠
فقيل له فى ذلك، فقال : هذا عالم ما جاء من بلده حتى قرأ الأشمونى والمختصر ونحو ذلك

أخبرنى نفعنا الله به :
أنه كان ملازمًا لولى من أولياء الله تعالى، فحين تعلقت نفسه بالجامع الأزهر، توجه مع هذا الولى لزيارة ثغر دمياط٠
فنام إلى جانبه ليلة فرآه فى النوم ، وقد أسقاه من إبريق لبنًا، أو ماء، وقال له :
هذا علم النحو، وهو أصعب العلوم فى الأزهر٠

قال لى : ثم انتبهت فقلت له : يا مولانا الشيخ رأيت ما هو كذا٠
فقال لى على الفور : اسكت أضغاث أحلام، لأن الولى المذكور كان من الملامية لا يحب أن يظهر لنفسه حالًا٠

ثم إنه جاور عقب ذلك بالجامع الأزهر، فحين استقل بهذا العلم، فتح عليه فى أقرب مدة، ثم اشتغل بأخذ علم الفقه، وغيره ؛ من حديث وتفسير وأصول ومنطق ومعانى وبيان، وغيرها من سائر العلوم العقلية والنقلية، حتى برع وفاق على أقرانه، وصار علامة زمانه٠

جذبته أيدى العناية إلى حضرة أستاذى، فأخذ عليه العهد، ولقنه أسماء الطريق السبعة على حسب سلوكه فى سيره، ثم ألبسه التاج، وأجازه بأخذ العهود والتلقين والتسليك، وصار خليفة محضًا٠

فأدار مجالس الأذكار، ودعى الناس إليها فى سائر الأقطار، وفتح الله عليه باب العرفان، حتى صار ينطق بأسرار القرآن، ويتكلم فى الحقائق فيعى الصامت والناطق٠

ومِمن تطفل على هذه الموائد، ورجى الانتظام فى سلك هاتيك الفرائد :
مؤلف هذه السطور، وجامع هذه السطور أفقر الأمة، وأحوجهم إلى الرحمة :
حسن بن على بن على بن منصور ابن عامر بن رياب، عرف " بشمه المكى "٠

المكى مولدًا ومنشأ، الفوى وصلًا، ينتهى نسبنا من جهة الآباء إلى الولى الربانى سيدى محمد بن زين البحر لؤى، ومقامه مشهور، وحاله مأثور٠
هكذا أخبرنى والدى فى سلسلة نسب أبيه٠
وأما أم أبيه فالشريفة فاطمة من ذرية القطب الكبير العلوى سيدى إبراهيم البسيونى٠

لما ميزت قرأت القرآن فحفظته ثم جودته من طريق السبعة، وحفظت متونًا كثيرة، واشتغلت بطلب العلم بالمسجد الحرام، على مولانا الشيخ عطاء الدين بن أحمد٠
القائل فى حقه بعض الأفاضل : إمام الحرمين بالإجماع، وفخر الإسلام بلا نزاع، صاحب التألفيات البديعة العجيبة، التى نافت عن مائة مؤلف٠

ثم قدمت القاهرة عام سبع وخمسين ومائة وألف، فاجتمعت على الهمام العالم العلامة، والعمدة الفهامة الشيخ محمد عرف " عرف بمحمد الفوى "٠
فقال لى فى أثناء حديث : إن عندنا الإمام الجامع العارف، الغارف من دنان المعارف، الشيخ محمد الحفناوى، فاذهب بنا لزيارته٠
فقلت له : لقد (كلمة غير واضحة) فى هذا الشيخ، وأنا غنى عنه، وعن رأيه٠
فلم يزل يعالجنى حتى ذهب بى إليه٠

فدخلنا بيته الآمن، فلم أره، ورأيت خلائق لا تحصى عدتهم إلا هو٠
فقلت : أين الشيخ ؟ فقيل لى : سينزل من بيته الأعلى، فانتظرناه فأبطأ قليلًا٠
فقلت للشيخ محمد المذكور : ما هذا الشيخ الذى ينتظره العالم، وأراهم مطرقين أيضًا دعنا منه، فأشار إلى : أن اسكت٠

ثم فتح باب البيت فإذا بالشيخ كان فلقة قمر، عليه حلة خضراء قد تخللها نوره فأضات أرجاء البيت، فخجلت وذهلت من نور ذلك الوجه المضىء، وجلا ذلك الخلق الكريم الرضى٠
فإذا به وقد خصنى بالنداء، وأجلسنى إليه، وأقبل على إقبال الحب، ومع ذلك قد دهشت فلم أشعر بشىء٠

ثم قام فصلى العصر واقتدينا به، فأخذنى مولانا الشيخ محمد المذكور، وقدمنى إليه وقال : خذ عليه العهد، فعاهدنى ولقننى الذكر، فزدت دهشًا، وأخذتنى عبرة شديدة، واستل منى فؤادى، فلم يبق فيه غيره.

ثم ضمنى إليه ودعى لى بدعوات وجدت بركتها حتى الآن.
ثم قال : هذا من أهل السعادة والفوز، ولم يزل يوصى الشيخ محمد المذكور بى.
ثم ودعناه وخرجنا من بيته، فرأيت لقلبى حراكًا إليه وتوجهًا شديدًا، ولم أزل فى بكاء ونحيب.

واشتغلت بالذكر فرأيت منه مدد عظيم، فعرفت جلالة هذا الرجل وفخامة قدره، نفعنى الله بحبه.
ثم بعد مرة لقننى الاسم الثانى، وارتحلت إلى الحجاز، ثم عدت إليه فحيانى وبيانى وعلى ما أحب ربانى، ولقننى بقية الأسماء، وأثبت اسمى فى أبحر السلاسل، وألبسنى التاج، فلعل الله أن يحققنى بحبه، وأن يلحقنى بحزبه، وأن لا يخيب أملى، فإن عليه متكلى.

رسالة ألفها أستاذى فى فضائل الذكر، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة ..
وبعد، فيقول فقير ربه الغنى الراجى عفو مولاه " محمد الحنفى " :

هذه رسالة فى فضل التسبيح والتهليل، مشتملة على أحاديث سرها يشفى العليل، وعلى ما يطلب من التمايل فى حق الحق الجليل، وعلى وجه ابتدأ بالنفى من جهة اليمين، والختم بالإثبات من الجهة اليسارى.
وفى بيان حكم الأسرار الجهرية، نفع الله سرها الأحباب، إنه كريم جواد وهاب.

أما الأحاديث :
فمنها : « إذا قال العبد المسلم لا إله إلا الله، خرقت السموات حتى تقف بين يدى الله، فيقول لها اسكنى، فتقول كيف أسكن ولم تغفر لقائلها ؟ فيقول : ما أجريتك على لسانه إلا وقد غفرت له ».
رواه الديملى بسند يعمل به فى الفضائل.

« إن الله عز وجل عهد إلى أن لا يأتينى أحد من أمتى " بلا إله إلا الله " لا يخلط بها شيئًا إلا أوجد الله له الجنة، قالوا : يا رسول الله وما الذى يخلطه بلا إله إلا الله، قال :
حرصًا على الدنيا، وجمعًا لها، ومنعًا لها، يقول قول الأنبياء، ويعمل عمل الجبابرة »
رواه الحاكم والترمذى بسند يعمل به فى الفضائل.

« من قال لا إله إلا الله وجبت له الجنة، ومن قال سبحان الله وبحمده كتب له مائة حسنة، وأربعة وعشرون ألف حسنة، قالوا : يا رسول الله إذًا لا يهلك منها أحد.
قال : بلى أن أحدكم ليجىء بالحسنات لو وضعت على جبل لأثقلته، ثم يجىء بالنقم فتذهب بتلك، ثم يتطاول الرب بعد ذلك برحمته ».
رواه الحاكم فى المستدرك بسند صحيح.

وروى الحاكم عن شديد بن أوس، قال :
« كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال : ارفعوا أيديكم فقولوا لا إله إلا الله.
فقلنا، فقال : اللهم أنك بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها، ووعدتنى عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد، ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم ».

« من قال إذا أصبح سبحان والله وبحمده ألف مرة، فقد اشترى نفسه من الله سبحانه وتعالى، وكان آخر يومه عتيقًا من النار ».
أخرجه الطبرانى والخرائطى.

« ليس من عبد يقول لا إله إلا الله مائة مرة، إلا وقد بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولم يرفع لأحد يومئذ أفضل من عمله إلا من قال مثل قوله أو زاد ».
رواه الطبرانى بسند يعمل به فى الفضائل.

« لا تزال لا إله إلا الله تحجب غضب الرب عن الناس ما لم يبالوا ما ذهب من دينهم إذا صلحت لهم دنياهم، فإذا قالوها عند ذلك قيل لهم كذبتم لستم من أهلها »٠
رواه البخارى بسند يعمل به فى الفضائل٠

« من قال لا إله إلا الله يبقى ويفنى كل شىء، عوفى من الهم والحزن »٠
رواه الطبرانى٠

« اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب »٠ رواه ابن عساكر عن عطاء مرسلًا٠

« اذكروا الله ذكرًا حتى يقول المنافقون أنكم تراؤون »٠ رواه الطبرانى٠

عن ابن عباس : « اذكروا الله ذكرًا خاملًا، قيل : وما الذكر الخامل ؟
قال : الذكر الخفى »٠ رواه ابن المبارك عن حمزة مرسلًا٠

عن أبي سعيد الخدرى : « أن رسول الله - - صلى الله عليه وسلم سئل : أى العبادة أفضل درجة عند الله تعالى يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيرًا »٠

وفى الحديث القدسى : « لا إله إلا الله حصنى، ومن دخل حصنى أمن من عذابى »٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا إله إلا الله أفضل الذكر، وهى أفضل الحسنات »٠

وقال - صلى الله عليه وسلم - :
« أسعد الناس بشفاعتى من قالها خالصة من قلبه، ما من عبد قالها ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، وإن زنا وإن سرق، قال ذلك ثلاثًا »٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : حِلَق الذكر »٠
وهى : جماعة من الناس يستديرون كحلقة الباب٠

وجاء فى حديث آخر تفسير رياض الجنة : بمجالس العلم٠
وجاء فى حديث : تفسيرها بالمساجد٠

وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يبين لكل قوم ما يناسبهم٠
وقال - صلى الله عليه وسلم - :
« ما من قوم جلسوا مجلسًا وتفرقوا منه، ولم يذكروا الله فيه، إلا كأنما تفرقوا على جيفة حمار، وكان عليهم حسرة يوم القيامة »٠

وأما التمايل عند التهليل :
فقد قال الإمام الشعرانى فى " الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية " ما نصه :
ومما أنكروا على القوم تمايلهم يمينًا وشمالًا عند قول " لا إله إلا الله "، وقالوا : لم يرد بذلك نص، إنما ورد الحث على ذكر الله من غير ذكر تمايل۰
والجواب :
أن الحافظ أبا نعيم روى عن الفضيل بن عياض، قال :
كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا ذكروا الله تعالى تمايلوا يمينًا وشمالًا كما تتمايل الشجرة فى الريح العاصف إلى قدام ثم يرجع إلى وراء۰

فاعلم ذلك يا أخى، وإن كنت ولا بد منكرًا فأنكر على أهل المحرمات بالنص التى تراها فى بلدك وغيرها ولا تنكرها۰

والسر فى الابتداء من الجهة اليمنى، كما ذكر بعض العارفين :
أن النفس الأمارة فيها، وهى نفس خبيثة قال فيها يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ :
{ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }۰

وقال فيها نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك »۰

وذكروا أن الشيطان من جندها، لا يقدر على الدخول على الإنسان إلا بواسطتها، وهى تخيل للعبد القبائح حتى الشرك۰
فرد عليه بنفيه۰

والقلب فى الجهة اليسرى، وهو محل الأسرار والأنوار، فجعل لفظ الجلالة الشريفة عليه ليتلقى أنواره وأسراره۰

وأما حكم الإسرار والجهرية :
فاعلم أن الذكر سرًا أفضل : لمن خاف رياء، أو أذية نائم أو مصل أو قارىء۰

وإلا فالجهر أفضل : لأن العمل فيه كثير، وفائدته تتعدى للسامع، وتوقظ قلب الذاكر، وتجمع همته إلى الفكر، وتصرف همته إليه، ويطرد النوم، ويزيد فى الثواب۰

أما قوله تعالى : { وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ }
فأجيب عنه : بأن الآية مكية نزلت لما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجهر بالقرآن، فيسمعه الكفار فيسبون القرآن ومن أنزله فأمر بالترك، وقد زال ذلك، والأمر خاص به ـصلى الله عليه وسلمـ الكامل المكمل، الذى روحه أفضل الأرواح المقدسة۰

وأما غيره ممن هو محل الوسواس والخواطر الرديئة، فمأمور بالجهر لأن له تأثيرًا فى دفعها.
وأما قوله تعالى : { ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }
فذلك فى الدعاء لا في الذكر، والأفضل فى الدعاء الإسرار لأنه أقرب للإجابة.
ولذا قال تعالى : { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا } .

وأما ما نقل عن ابن مسعود، أنه رأى قومًا يهللون برفع الصوت فى المسجد، فقال :
ما أراكم إلا مبتدعين، وأمر بإخراجهم.
فغير ثابت بدليل ما فى كتاب الزهد، بالسند إلى أبى وائل، أنه قال :
الذين يزعمون أن عبد الله كان ينهى عن الذكر، ما جالسته مجلسًا قط إلا ذكر الله.
أى : جهرًا.

ومما يدل على طلب رفع الصوت بالذكر خبر البيهقى :
« أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مر برجل فى المسجد يرفع صوته بالذكر، فقيل له : يا رسول الله عسى أن يكون هذا مرائيًا، قال : لا ولكنه أواه ».

وخبره عن جابر : « أن رجلًا كان يرفع بالذكر، فقال رجل : لو أن هذا خفض صوته.
فقال -صلى الله عليه وسلم- : إنه أواه ».
أى كثير التوجع من حرارة العشق، فلم يطق إلا رفع الصوت بذلك.

وبالجملة فأكثر الأحاديث دالة على طلب الذكر سرًا وجهرًا لإطلاقها.
وأما الأحاديث المقيدة بالسر، فقد تقدم وجهه.

وأفضله وأنفعه : ما كان بحضور قلب، ومجرد ذكر اللسان مع الغفلة لا يحرم الآتى به من الثواب، فلا ينبغى لمن حرم فضيلة حضور القلب أن يترك الذكر اللسانى.
وقد يوسوس الشيطان له فيقول : ما فائدة ذكرك مع غفلة قلبك ؟ فلا يميل إليه، ودم على ذكرك مجاهدًا فى ذلك اللعين، وارج وصول ذلك إلى القلب فيتجلى بالكمال.

وإن كان الكل يكرمون الذكر مع الغفلة نظرًا لحالهم، فقد قيل أن الشبلى قيل له : متى تستريح ؟
قال : إذا لم أر له ذاكرًا.
أى : ممن استولت على قلبه الغفلة، فيحصل له غيرة أن يذكر الله بهذا الذكر، وذلك لغلبة محبته، وشهود جلاله سبحانه.

أو المراد : إذا غبت عن الذاكر بالمذكور، وقى شهودى له بحيث لا أرى إلا الله، رأيت وشاهدت أن الله هو الذاكر نفسه بنفسه.
وهذا شأن أهل شهود الوحدة، كل شىء هالك إلا وجهه.

ومن شطحاته التى تغفر له لغلبة سكره وغيبته فى الشهود، واستغراقه فى الحب فلا يتقدى به فيها، ولا يؤاخذ به.
ما نقل عن أبى يزيد البسطامى سلطان العارفين من قوله : سبحانى، وما فى الجبة إلا الله.
وقال : ما النار، لأستأذن الله غدًا، وأقول : اجعلنى لأهلا الفدا.
فنسلم لهم حالهم، ونؤمن بما ذاقوه، ونبرأ إلى الله من كل ما خالف الكتاب والسنة.

فإن قلت : خوف جلال الله يمنع من جعله فداء لأهل النار، وقد أمر الصادق - صلى الله عليه وسلم - بالاستعاذة منها، : أعوذ بك من عذاب النار، اللهم أجرنى من عذاب النار.

أجيب : بما علمت أنه مقول فى حالة استغراقه.
أو يقال : أنه لما علم قربه من مولاه، وشدة نوره الذى غمر به ظاهره وباطرنه، وعلم أن نور العارف لا تقاويه نار جهنم بل يغلب عليها فيخمد حرارتها، طلب دخولها توصيلًا لإطفاء نوره لنارها، رحمة لعصاة أمته - صلى الله عليه وسلم -.

اللهم ارحمنا برحمتك، وألحقنا بأهل محبتك، وأدم علينا نعمة الإسلام، وأكرمنا بحسن العاقبة والختام. أمين أمين.

وقد تمت هذه الرسالة الجامعة لأسرار الجلالة، ورأيت عليها تقريظًا، ولا أعلم لمن، وهو هذا :

هذه الزهور الزاهرة * يا من يريد الآخرة
فاعمل بها يا ذا البها * ترقى المراقى الفاخرة
واشكر لمغرد مناغها * رفقًا بنفس قاصرة
الواصل الحفنى من * دل القلوب الحائرة
الله يبقيه يحيى الحق * دومًا ناصرة